تُرعبهم أنفسهم!!

مجموعة قصصية

سندس جمال الحسيني

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى ٢٠١٣

"ترعبهم أنفسهم"

مجموعة قصصية

الكاتبة/

سندس جمال الحسيني

تصميم الغلاف /هبة البارودي

الطبعة الأولى ٢٠١٣

دار روعة للطبع والنشر والتوزيع

المدير العام : هبة الشرقاوي

موبايل : ٠١١٤٠١٧٨١٤٤

darrawaa@yahoo.com

رقم الايداع //٢٠١٣١٢٧١٥

الترقيم الدولي //

٩٧٨٩٧٧٦٤١١٢٠

ثُرعبهم أنفسهم

بعد ذلك يتحولون!!

بدا عليهم الإندهاش لبعض الوقت.. ربما لجلوس فتاة بينهم، لكن سرعان ما تجاهلوا وجودي حين تسارعت جملهم الحماسية وكل منهم يود شرح وجهة نظره ويدافع عنها.. كنت أشعر أنهم يكبرونني في العمر كثيراً.. رغم كونهم في العقد الثالث مثلي.. لكن معرفتي السابقة بحكاية كل منهم جعلتهم يبدون بمظهر مهيب في نظري.. مع أنهم في تلك اللحظة كانوا بسطاء ومتحابين.. كانت تسري بينهم روح أخوة صافية حقيقية لا مراء فيها.. حزنت لذلك.. بل وبدأ يتسلل إلى قلبي شعور بحبهم.. وكاد الدمع أن يغافلني حزناً على مصائرهم التي أحفظها عن ظهر قلب.. وما آلمني هو أنني كنت أظن أن أطماعهم كانت ظاهرة منذ البداية.. أن غرورهم طبع فيهم.. أي أنهم لم يكونوا شرفاء ولو ليوم واحد..

ليسوا ثواراً مطلقاً، بل وصوليين منذ نعومة أظافرهم وربما انتهازيين أيضاً.. وكنت أقصد بذلك أشخاص معينين ممن أشتهروا فيما بعد بالقسوة والوحشية.. ممن حُكيت عنهم أساطير في التعذيب والإرهاب..

لذا هالني أن أكون مخطأة وأن تتحطم ثوابتي في أن كل ديكتاتور متوحش قد عاش سنين طفولة معذبة وأنني أستطيع أن أحكم عليه بذلك المصير الدموي

بمجرد سماعه يتحدث ومن نظرة عينيه.. لكن ما يحدث أمامي الآن هو حوار بين شباب ثائر يبغي الحق والعدل فعلاً.. لم يعلو أحدهم على الآخر بعد.. لم يستأثر من صار رئيسهم بالكلمة بعد.. بل كان يجلس وسطهم وينادونه باسمه كواحد منهم دون تبجيل.. وكان يضحك في وجه من سيسجنه فيما بعد.. ويمزح مع من سينفيه خارج البلاد .. ويشرب الشاي في منزل من سيفرض عليه الإقامة الجبرية.. وكان يبدو لي غير منافقاً.. كنت أود أن أخبرهم أنهم سيتحولون.. وأرغب بشدة في أن أنصحه هو أن يرفق برفاق كفاحه وبشعب بلاده.. لكن منعني الخجل عن ذكر مصائرهم وأنا أراهم في غاية التحمس والفورة..

قلت في نفسي أن الماضي لا يتغير.. وحتما سيعتبروا كلماتي ككلمات العرافين الدجالين وسيسيروا في طريقهم المرسوم بكل تفاصيله التي ستحتوي على الفرح القليل في البداية والألم والحسرة في النهاية.. قمت من مجلسي وتركتهم يخططون للحدث الأكبر وأنا أفكر كيف أتعلم من ذلك كله حتى لا يتكرر معنا التاريخ.. وأجاهد يقيني الداخلي بأننا لن نتعلم..

كان دوما مجهولا

أيام ما كنت أسكن في حينا الهادئ لم تكن تقع الكثير من الأحداث التي تستحق الحكي.. كان يومنا في الصيف مثلاً وقت الأجازة يمر ما بين تناول المثلجات في الشارع واللعب بالسيارات التي نتحكم فيها عن بعد أو الاستغماية أو أي لعبة جماعية أخرى.. أتذكر مثلاً يوم اشترى لنا أبي من أمريكا طائرة تتحرك عن بعد بالرموت.. كانت ليلة ليلاء في شارعنا.. تجمعنا لنتابع هذا الاختراع المبهر.. الكل راح يقترح طريقة لتشغيلها.. فشلنا في جعلها تطير بعد ساعات من المحاولة.. كدت أن أفقد الأمل حتى وجدناها فجأة تطير فصحنا فرحاً وفي نفس اللحظة تقريبا اصطدمت بأحدى البنايات وانشطرت إلى نصفين..

وسط ذهولنا الحزين كانت ميار قد وصلت للتو.. لا أحد يعلم من أين تأتي.. ظهرت من العدم.. وضحكت ضحكتها الرقيقة وهي تضع أصبعين من يدها اليمنى على فمها وترجع كتفها للخلف قليلاً فتطاير شعرها البني مع نسمات الصيف الحانية .. ضحكنا جميعاً خجلاً.. رأيت على وجوه الأولاد من مجموعتنا علامات الانبهار المعتادة التي ترتسم على وجوههم كلما رأوا ميار.. لم يكن هذا يشعرني بالحقد لأن ميار كانت مَثلي الأعلى في كل ما

هو جميل.. الطلة والمظهر والضحكة وحتى الرائحة التي تسبقها من بعيد..
ضبطت نفسي أقلدها مرات وأضحك مثلها.. ونظرت في المرآة لعلي أشبهها.. لم أجد أي وجه للشبه فقررت أن أنتظر السنوات حتى أشبهها حين أكبر وأصير صبية مثلها..

لا أعلم حتى الآن لو ميار كانت تعرف اسمي أم لا.. لكن أتذكر أنها كانت حين تخرج وقت غروب الشمس وتلمحنى تأتي إلي باسمة وتنحني ويدها على ركبتها وتعدل لي نظارتي التي تصبح وقت اللعب على حافة أنفي تماماً فأرفع رأسي كلها لعلي أرى بها .. كانت تلحظ ارتباكي فتقول لي الا أقلق لأنني بمجرد دخولي للمرحلة الثانوية سأتخلص من النظارات وأرتدي عدسات لاصقة.. وكنت فقط أفكر في شعري المبعثر في كل إتجاة...

حين سألت أمي متى سيمكنني ارتداء عدسات لاصقة زجرتني بنظرة غاضبة.. وحين طلبت من أبي أن يشتري لي مجفف للشعر ليصبح شعري منسدلاً ضحك قليلاً حتى أخبرته أنني أريد أن أشبه ميار فتهجم.. كنت ألاحظ تحفظ والديَ على ميار فلا أدري له سبباً.. فهم حين يرونها يلقون عليها التحية بكل ترحاب.. وقد يتغزلون في جمالها ورقتها.. لكن حين نصبح وحدنا يرددون أنه اللهم احفظنا.. لم أكن أولي تعبيراتهم انتباهاً في ذلك الوقت.. فقط كنت أواصل تطلعي لأن أشبه ميار وأقلدها ولو في لون ملابسها المبهرة التي يأتي بها والداها لها من الخليج حين يأتون في زيارات

خاطفة لمصر.. لم أكن ألحظ أن ميار تعيش مع جدتها فقط.. علمت ذلك كله فيما بعد.. بعد الحادث علمت الكثير وفهمت أكثر..

قل انبهاري بميار مع الأيام حين صرت أكبر فالتفت إلى نفسي أكثر.. وكنت أتهكم مع شقيقتي على إعجاب جيراننا الشباب ممن يقربوننا في العمر بها لفرق السن بينهم.. وقلت مرات رؤيتي لها عندما كففت عن النزول للعب في الشارع تماماً.. كانت تزداد جمالاً وتألقاً وكانت تلقي عليَ السلام كأنني صرت في عمرها مما كان يزيدني ثقة في نفسي.. كنا نسمع عنها الحكايات والروايات من زوجات حراس العمارات المجاورة الذين يتناوبون على بيتنا لمساعدة أمي في أعمال المنزل.. هناك من تقل أن ميار قد تزوجت سراً.. وإلا فمن هذا الذي يوصلها بسيارته ليلاً حتى باب عمارتها؟ .. ثم أن أهلها لا يعرفون عنها شيئاً وجدتها تدللها بلا حساب.. وأخرى ذكرت شيئاً عن كونها مدمنة للمخدرات.. وطبعاً هذا بسبب كون أصوات الأغاني تنبعث من غرفتها عالية في منتصف الليل.. لم أكن أجد تلك الأقوال دليلاً على أي شئ.. وكنت أصاب بالغيظ حين تستمع أمي إلى تلك الحكايات بكل اهتمام ثم تردد أنه من الخطأ أن نتكلم عن جيراننا بالسوء.. ثم يتحدثون عن انبهارهم بعينيها وتفوقها العلمي.. وبعدها يقولون أن جمالها مصطنع وكله بسبب مساحيق التجميل الباهظة الثمن التي يحضرها أبويها من بلاد الغربة.. بل وذهب بهم الخيال أن تفوقها الدراسي بالغش من زملاءها الشباب بسبب

جازبيتها الغامرة.. كان كل حديثهم متناقض وسخيف في نظري.. لكن لم أكن أجرؤ على ذكر ذلك..

في الجرائد الصفراء كتبوا أن فتاة مدينة نصر طالبة السياسة والاقتصاد ليست بريئة كما يبدو على ملامحها.. وانتشرت صورها ولا أعلم من أين تسربت.. ما زاد الأمر سوءاً وجعل الناس تصدق ذلك هو جمال وجهها النادر.. وكنت لأول مرة أدرك أن الجمال يتعارض مع الطهر في نظر الكثيرين.. بكيت كثيراً وحدي أيامها.. كانت الكلمات فوق احتمالي.. مانشيت جريدة ما أنهم ينفردون بوصف تشريح جثتها.. صفحات الانترنت تذكر أن ميار كانت تضع حلية ماسية على بطنها.. وأنها كان لديها وشماً على كتفها.. شعرت أن في ذلك امتهان ما بعده امتهان.. ما شأن القراء بكل ذلك..

وظل وجه أبيها المكلوم وهو يتحدث في التلفزيون الرسمي عن شرف ابنته ويتوعد برفع قضايا ضد كل من مس سمعتها يعذبني.. وبقي وجهها الملائكي يطاردني ويجعل حياتي جحيماً.. كنت أشعر بذنب لا أعلم مصدره..

فقد كانت كل وسائل الإعلام تشوه صورتها بشكل غير مبرر وكأنها ليست الضحية.. وكأنهم يأمرون الناس ألا يتعاطفوا معها.. وما زاد حالتي النفسية بشاعة هو أن ذلك المخطط قد أتى ثماره بالفعل، وسمعت بنفسي من يقول أن ما حدث لها نهاية طبيعية لكل فتاة بلا حياء.. وكان من يرددون ذلك هم نفسهم الذين كانوا يتمنون فقط أن تبتسم لهم ولو مرة!.. فاضطررت

للذهاب لطبيب نفسي لفترة قصيرة خاصة بعد ان أصبحت الكوابيس لا تطاق وبعد إدماني رغم أنفي للأرق..

رغم نصيحة الطبيب لي بأن أكف عن ملاحقة أي تطور في الحادث إلا أنني كنت أغافل أمي وأتصفح الانترنت فجراً.. هناك من يقول قتلها عشيقها.. وآخر يؤكد أن من ذبحها هي وجدتها في منتصف الليل هو ابن الحارس الذي كان يحبها.. وآخرين يزعمون أن الحادث بدافع السرقة والدليل البعثرة التي كانت في الشقة.. وفي النهاية قيدت الحادثة ضد مجهول.. وأصبحت فتاة مدينة نصر علامة شارعنا الخامل لفترة ما ثم نسيها الجميع..

مرت سنوات كانت هي فيها لي كالطيف.. ودخلت أنا الجامعة وانخرطت تماماً ما بين الأنشطة الطلابية والمشاريع التي يطلبها منا الأساتذة.. وقرر أبي أن نرحل عن حينا الهادئ إلى حي أكثر هدوءاً ورقياً .. وكنت لا أذكر ميار إلا إذا زارتني بسمتها في الأحلام..

ومؤخراً لمحت عيناي عنواناً لخبر لا يتعدي الخمسة أسطر أن من قتل فتاة مدينة نصر هو ابن أحد المتجبرين في الأرض الذين تم سجنهم بعد ثورة يناير .. والسبب أنه قدعشقها ورفضته.. ولا أعلم إن كان خيالي يصور لي أن بسمتها قد عادت لصفاءها حين رأيتها في منامي أم أنها نفسي هي التي ترغب بشدة في ذلك..

الأسر هو الأسر.. والحرية لا تعرف المقايضة ولا ليس منها درجات.. فإما أن تكون حرا وإما فلا.. كنت محبوساً معه وظننت ان ذلك سيخفف عني وطء الكبت.. ما أن رآني حتى عرفني واشتد بيننا النقاش.. وجدته يقول لي:

- قل له أنت أن يفك القيد.. يكسر أسره بيديه.. يقفز فوق الحواجز.. يجري بعيداً عن سجنه.. ماذا وجد؟.. سجناً غيره؟ .. كنت أعلم.. لكن أمتعني حماسه فتركته..

لماذا تركته؟ هه؟ لتتمتع برؤية اليأس في عين غيرك! كم أنت أناني مثير للشفقة! أتعتقد أنك بهذا أحكم الحكماء؟ ماذا إذن لم تنشر حكمتك لتظلل بها سقف الحرية.. لتكبح جماح الفتونة ودماء الشباب.. لتقول لهم لا تحاولوا.. ظلوا كما أنتم وما عساكم فاعلين غير المحاولة.. يا لك من فاشل غبي تظن أنك الأوحد..

- تذهب وتمشي وتبكي وتضحك.. تعود وتأكل وتنام وتحلم.. تكبر في العمر وتمر عليك الأيام وانت تنتظر أن تصير شيئاً.. ولا تصير سوى أنت.. تيأس أو ترضى.. يُشفق عليك صغار السن ويبتعدون.. فهم مازالوا مساكين.. ومالنفكوا يحلمون.. لا

تخبرهم.. ابتسم فقط من بعيد بإشفاق..

إشفاق على من يا خالي القلب والروح! على من يسعى أم عليك يا جثة ميتة تعفنت في الأسر وأصبح لفكرها رائحة الجيفة

- لو كنت ميتا لما حاورتني

كف عن هدوءك المصطنع وأخرج روحك إذن وهيا انفجر وثُر على أفكارك الهدامة وأقذفها برصاص حي أكثر من بدنك وأعد لوجهك الحياة.. كنت في السابق مثلاً أعلى لهم فلا تنقل إليهم مشاعرك البغيضة..

- ماذا لو كانت تلك المشاعر البغيضة هي الحقيقة.. ماذا لو كنت أنا الواقع.. هل فكرت في كوني قد أكون العاقل الوحيد بينكم؟ ألست أكبركم سنا.. ألم تعترف بأنني الأكثر حكمة!

ما أنت إلا الأكثر فشلاً!

- تردد شعارات يومية.. تحلم بها وكأنها عنوانين الصحف.. ترى الإعجاب في أعين غيرك فيسرك وتتظاهر بالتواضع.. تضحكك تلك الخيالات فتسعد للحظات.. ثم تنظر للجيل السابق عليك على أنه لا يفهم الحياة.. كم هو مسكين ذلك الجيل الذي لم يصل لعبقريتك الفذة.. انتقده.. لا تكف عن الهجوم عليه.. أعلم أن ذلك يؤجج حبك لذاتك ولأفكارك.. لا عليك لقد كنت مثلك يوماً ما .. وأتذكر نفسي الآن فلا أصاب إلا بنوبات الضحك..

أي أنك تستكثر علينا الحلم! يالك من ظالم! لم تعش إلا خيالات سعيدة وتستكثرها علينا لأننا في نظرك تكرار لهفوات جيلك السحيق الفكر! يا لك من واهم!

- تحمس.. صح في وجهي وحرك ذراعيك وهددني.. إفعل ما في وسعك لتثبت أنني خطأ.. أخبر كل زملائك بحوارنا لتستمع إلى عبارات الإطراء على حديثك وعبارات السخرية مني.. انتشي واهناً.. ولا تتذكر كلماتي إلا حين تعيدها على الجيل القادم بعدك.. وإن شأت لا تعترف بخطأك فهذا شأنك وقتها.. لكن ستكون من داخلك تعلم..

لا يمكن! حقاً أنت مصاب بالفوبيا.. نعم عندك فوبيا الفشل.. عالج نفسك.. هل هناك الكثيرون منك؟ هل كل المسجونين بتلك العقلية! أكاد لا أصدق! وأنا الذي افنيت عمري أقرأ كتبك وأدافع عن أفكارك الثورية! وأنا الذي هتفت بحريتك وطالبت بالقصاص من سجانيك! يا لك من أكذوبة كبيرة!

- صدق نفسك.. ذلك هو دواءك الوحيد.. فإن عدوك الأول ليس أنا.. بل هو نفسك.. تلك القابعة بداخلك التي مانفكت تعطيك جرعات الأمل.. فتشعر بنشوى الإدمان وتسترخي.. لو كنت أنا أكذوبة فلست الأكبر في حياتك.. وعمرك الذي تبكيه لأنك أفنيته

تقرأ لي هو لا يساوي أن تحزن على ضياعه.. ولو استمررت في نهجك ستخشى على نفسك من التفكير.. ستخشى أن تكفر بكل ما سبق.. ستصيب ذهنك بالشلل مع سبق الإصرار..

ابتعد عني.. أنت كالحمى.. أشعر بجبهتي تسخن وبروحي تحترق.. لكن لا.. لن أصاب بالعدوى.. وجرعات إدماني ليست أمل كما تظن يا أحمق.. بل هي خطة وعمل وسأنفذه رغم أنفك.. وساعتها لن ألتفت إليك.. بل لن أخرجك من محبسك من الأصل.. سأتركك ملقى كالقمامة وقد أعدمك أيضاً.. وسأعدم كتبتك معك حتى لا تخدع غيري.. يومها سأصل إلى السلطة وسأكون عادلاً وسيعم السلام والحرية.. ولن أتذكرك والكل يحلف باسمي..

- ها أنت تحلم بالمجد كمن سبقك.. ها أنت تذكر الحرية والسلام في جملة واحدة مع إعدام الكتب.. ها أنت صورة طبق الأصل من السجان.. ولو نظرت في المرآة سترى من كرهته يبتسم لك في سماجة.. ويعلن أنه الأقوى.. إنها غابة وأنت تعتقد أنه كونك تلعب فيها دور القرد المشاغب الآن سيمنعك عن لعب دور الضبع المسعور حين تنفتح لك خزائن الأرض.. وكلهم يفعلون يا صديقي.. وكلهم بدأوا بقراءة كتبي.. وصدقوا أنفسهم.. وبمجرد تمكنهم سجنونني وأحرقوا كتبي.. خافوا من أن تصل إليك.. لأنهم يعرفون.. أن الكل لا يختلف عنهم.. وأنت يا مسكين مازلت في مرحلة الإنكار.. فصدقني الفشل كثيرا ما يكون الأكثر حفظاً للكرامة والمبادئ..

اصمت فوراً.. أنت الشيطان بحد ذاته.. لا يمكن أن أستمر في السماع.. سأتركك تهذي وحدك.. أترى.. زميلي هذا الذي كان يحذرنا منك على حق.. الذي كان يصم أذنيه عنك.. الذي كان يجلس بعيداً لا يقرأ إلا الكتب المسوح له بقراءتها.. أترى.. هذا السجان أرحم منك.. سأطلب منهم العفو لأنجو من السجن معك..

- لا تتسرع.. دعهم يطلبون منك العفو أولاً.. دعهم يتوسلون إليك لكي تشاركهم ملكهم.. لتكف عن التسبب في صداع أدمغتهم.. في أرق نومهم.. فهم يخشونك وسيحاولون استرضائك حتى تصير واحداً منهم.. وساعتها فقط التفت على رقابهم.. ولا تنسى أن تنساني ولا تخرجني، فأنا دوماً خطر على أمثالكم.. إفعل كما يفعل زميلك الذي يخشى على ذاته مني.. الذي حذره رؤساءه من الاقتراب مني.. قالوا له إنه مخرف كبير ونحن فقط من يجيد التفكير.. خدعوه وحين يوصلهم بساعديه وبدماءه للملك سيصير أداة بلا عقل في يديهم.. هو فتوتهم وعزوتهم التي ظلت تحلم بالتغيير.. وحين سيأتي التغيير ويحكمون سيصاب بالدوار والحيرة.. ولن يكف عن الدوران حولهم لأنهم منعوه من أن يعرف غيرهم.. أرعبوه من نفسه التي قد ترغب في الخلاص.. أقنعوه بأنه لو رغب في التفكير يكون قد كفر بكل المبادئ.. وكل ذلك حتى لا يكفر بهم..

ترعبني كلماتك ولا أقدر على الابتعاد.. من أنت.. كنت أظنك مجرد ثائر فاشل قديم سنصلح نحن ما أخطأ هو فيه.. أحقاً تظن أنه لا نجاح لنا! أننا

لن نخرج من هنا إلا إذا بعنا ذواتنا!

- كن فكرة.. لا تكن أداة في يد أحد.. ولا حتى في يدك أنت.. أتسمعني؟ كن رمزا ولا تكن اسما يا بني.. الاسم هو الغرور.. الاسم هو الإثم.. كونوا كياناً بلا أسماء.. كونوا مبادئ بلا أهواء..

سأحاول أن أفهم.. للحظات أشفقت عليك.. ولحظات أخرى كرهتك وسببتك.. سامحني.. فقد بدوت لي ناقم كاره لشبابي يرجو تحطيمي.. والآن نقلت إلي شعورك بالشفقة علي.. كم هو قاسٍ أن يشفق المرء على نفسه! أخشى أن أقدم على الانتحار لو سيطر علي هذا الشعور.. لو لم أعود لأملي ولأفكاري.. أفكاري التي استمدتها منك.. أفكارك القديمة المليئة بروح الثورة.. كيف أرتبها في عقلي الآن بعد أن تقابلنا في هذا السجن ورأيتك تتحدث عني بتلك الحالة!

- كن روحاً.. كن أبدياً.. انبذ الأماكن المغلقة.. والجلسات المنمقة.. والأحاديث المنافقة.. وموائد الاجتماعات المغلقة.. وشاشات الإعلام المزيفة الخانقة.. عش مجهولاً.. وغير نفوساً.. حاول.. ولو رأيت غيرك من زملائك من قد أبهرته الأضواء الساطعة.. اتركه ولا تنجرف.. ولو رأيت زميل سجنك قد خرج وتنفس هواء المجد والتفت عليك يجلدك.. لا تتحول إلى نسخة منه.. فقط حاول..

حسنا.. سأحاول..

تسمعهم يتكلمون.. يضحكون.. حتى لو لم يكونوا ينبسون ببنت شفة..

أو لم يكونوا حولها من الأصل..

تلك الأصوات لم تعد تزعجها.. لكن ما يثير ذعرها الآن هو الصرخات.. ربما تكون استغاثات.. لا تدري تحديداً.. تقوم من جلستها تهرول نحو الفراغ تبحث عن مصدر الأصوات.. تفتح باب الغرفة.. تجد مقبض الباب مبتلاً بالماء الدافئ.. فتصرخ من التقزز ناسية صرخات الاستغاثة وتجري نحو المطبخ لتحضر منشفة وصابون وفوراً تنظف بهما الباب بأكمله.. تسمعهم يضحكون ضحكات مكتومة خبيثة.. تلك المرة يضحكون فعلاً.. وتسمع زجرات من شقيقتها لهم ليكفوا عن ازعاج خالتهم.. لا تلتفت إليهم لأنها تكون قد صبت جم تركيزها على عملية تنظيف الباب الذي فتحه أحدهم بأيدي مبتلة مليئة حتماً بالجراثيم..

أحياناً تقتلها اللحظات فتحمل قطتها البيضاء وتخرج من غرفتها لتجلس معهم.. يفرحون لقدوم القطة أكثر من فرحتهم بها.. ربما لأنهم أطفال وربما لأن القطة ترحب بهم بنظرات متشوقة للعب.. وتظل هي تفكر في إحكام

قبضتها على القطة حتى لا تفلت من يدها وتجري في المنزل الذي يمتلأ بالقاذورات ولا تقدر هي على تنظيفه كاملاً يومياً.. تجلس متوترة لبعض الوقت..

تتبادل أطراف الحديث مع شقيقتها.. الشخص الوحيد الذي يتهلل وجهه حين يراها.. تتكلم شقيقتها معظم الوقت.. تحاول أن تقص عليها أحداث العائلة.. ما يحدث في السياسة.. مواقف أطفالها في المدرسة.. تفتح أي موضوع حتى لا يسود الصمت.. وعلى أمل أن تتحدث هي أيضاً.. إلا أنها تستقبل تلك القصص بهمهمات غير مفهومة.. أو بايماءات من رأسها.. وذلك لأنها تستمع إليها بنصف عقل محاولة أن تربط ما تحكيه بالواقع..

وفي جانب عقلها الآخر تشتعل الوساوس والهلاوس.. تبذل مجهوداً لتنحيها جانباً.. تنجح للحظات..

وبعدها تعود بقوة للتفكير والهيام في عالم المخاوف والأحزان.. فتنسحب بهدوء ساحبة قطتها وقلقها وتوترها لتسجنهم معها في غرفتها حتى لا تتحول إلى سجن انفرادي...

إنهم مكسورون!!

الرائحة تبدو غير مألوفة والجو بارد..

لا أعلم أين استيقظت بالضبط أنا..الظلام يحبسني ويكتفني في الفراش بأسوار نفسية عميقة تتأصل في ذاكرتي بأنني غير مسموح لي بالقيام.. قررت التمرد .. وجدتني بملابس قطنية سخيفة تغطيني بالكامل ومقفولة من عند رقبتي بشكل مقيت طالما كرهته وقت النوم، حاولت فتح الأزرار لم أجدها فبدأت أتوتر وأنا أعدكم الأغلال المطلوب مني تخطيها وكسر طموحها في سجني كي أصل إلى مرحلة معرفة أين أكون..

مشيت ببطء المتسللين حتى وجدت باباً بلا مزلاج فانتابتني حالة من الهياج وضربته بكل جسدي حتى انفتح.. اعتقدت أن ضرباتي كانت قوية بما يكفي لفتحه وأنني أحرزت نصراً لحظياً أفخر به في وقت لاحق لكن بهتني وجه صارم لا أعلم متى رأيته حتى طُبع في ذهني روح الرعب.. كانت امرأة ترتدي الأبيض وتأمرني أن أعود وإلا.. كانت تأمرني برفق حازم وهي تسحبني للفراش مرة أخرى وتردد أن معاد الاستيقاظ لم يحن بعد، وأنني في الصباح سأنزل إلى الأسفل لتناول الأفطار مع زملائي في الحديقة لأن غداً يوم الجمعة فلا تستعجلي.. لا تتهوري.. لا تتصرفي أي تصرف فغضبنا ليس من مصلحتك.. ودخلت وجلست في الفراش أنتظر الصباح..

غفوت أو أغشي عليَ أيهما أقرب للواقع لا أدري.. وحين أفقت كان الظلام أيضاً هو سيدي، تذكرت الليلة السابقة واعتقدت أن الإفطار الصباحي قد فاتني.. كنت قد فطنت إلى أنني في مشفى.. لكن لم أصل بعد لإجابة سؤال لماذا أنا وأين هم.. ربما كانت مصحة نفسية أيضا، فأنا لا أشعر بألم جسدي وليس بجواري خراطيم ولا أجهزة تساعدني على الحياة.. قمت بسرعة وبلا تفكير وفتحت النافذة فإذا بها تطل على تلك الحديقة المزعومة فقفزت بلا خوف ووجدت نفسي قد وقعت بلا ضجة فازدادت شجاعتي وقفزت فوق السور ولم يلحظني أحد بلا سبب واضح فجريت مبتعدة ..

في الطريق وجدت بعضهم.. كانوا يضحكون بلا اكتراث بما يحدث حولهم وحين لمحوني قصوا عليَ ما كان يضحكهم فضحكت معهم وأضفت المزيد.. أمضينا أوقات في اللعب والهزل والشجارات الطفولية.. وأحيان أخرى كنا نذاكر مناهج مسلية.. جذبتني اللغة العربية وشدني التاريخ.. وبرعت في كتابة الشعر ونظم الكلام.. وكنت الأكثر سرعة في ركوب الدراجات.. تمتعت كثيراً وزادت صداقاتي ..

وأثناء تضييعي الوقت بمرح لمحت آخرين يتظاهرون بعيداً.. فبلا وعي انجذبت إليهم ورحت أكتب لهم الشعارات وأصيغ الهتافات.. أكره الظلم فلا تظلمونا.. أتركونا نعيش.. لا تسرقوا حقنا.. من أنتكم لتفرضوا رأيكم.. وصايتكم وثقل ظلكم.. من مظاهرة لأخرى ومن مطالب لأخرى وكلها تخصني بشكل ما حتى لو كانت طلبات عمال المجاري.. كل مظلوم هو

أخي.. جريت من هراوات الأمن تارة ومن رصاصات القناصة تارة أخرى.. كان هو أيضاً يجري بجوارنا.. كان أكثرنا حماساً وشجاعةً.. مع الوقت صرنا معاً على الدوام.. حلمنا كثيراً ورسمنا الخطط.. كنت أحسب المستقبل ورقة أسطرها بقلمي أنا.. وسمحت له أن يكتب معي في ورقتي.. حتى جاء يوم فضوا فيه اعتصامنا بالقوة وتلون الأسفلت بالأحمر القاني.. أعطيته ورقتي كي يحتفظ بها لأني لا أريد فقد ما كتبناه فيها.. لم أره بعدها ونحن نهرول في الأزقة.. تاه مني تماماً وهم يستجوبونني.. ومع قسوة الصفعات نسيت كل شئ..

خرجت بعد عذاب مكسورة وكلي أمل.. والتأمت جروح كرامتي مع أول مظاهرة قابلتها.. زملاء كفاح جدد وأكثر شباباً وحماسةً.. وفي أعقاب مسيرتنا لمحته في سيارة فارهة يغني مع طفل يشبهه وجواره امرأة حسناء أنيقة ملولة.. خرجت من مسيرتي متوجهة إليه فلمحني.. أغلق شباك سيارته الأسود الذي لا يضعه إلا المهمين وزاد من سرعة السيارة راحلاً.. سمعت من زملائي أنه قد تلون واصطبغ بلون الآخرين .. قبل منصباً رفيعاً وعاش.. يقول الناس أنه منا فيضحكون على أيامنا.. ويقول آخرين أنه هو من أبلغ السلطات عنا فينظرون إلينا مشفقين على غباءنا.. كل ما تمنيته لحظتها هو أن أعثر على ورقتي التي تركتها معه حتى أمزقها..

انفضت مسيرتي لقلة العدد والضعف والإرهاق.. قالوا لي أن مطالبنا قد تحققت فلم أفرح.. فقد كان كل ما يقولونه لي في السابق كذباً وأنا لم أعد

تلك الطفلة التي تتفائل بوجوههم السمجة المبتسمة بسخافة.. فمشيت وحدي في شارع كئيب.. حتى وجدتها بوجهها الصارم وقد كانت تبحث عني منذ هربت من النافذة فاقتادتني ومعها الحراس للمحبس مرة أخرى.. دخلت بلا مقاومة وأنا أحاول أن أتذكر هل تلك المرأة ممرضة قاسية أم سجانة..

لم أتذكر.. وضعوني في غرفة بها العشرات غيري.. وكلهم يجلسون بلا حراك.. وجوههم يائسة ناعسة.. ولا يحركها إلا لحظات الطعام.. فتمنيت حبسي الانفرادي الأول ورجوته أن يعود تارة.. وتارة أخرى رحت أبحث عن نوافذ الهرب..

أهملنــــا مزلاج البـــاب

وضعت البطاطس في الزيت المغلي وأنا لا أفكر في أي شئ ..

حتى سمعت صوت باب الشقة الكبير تهزه الرياح.. فجريت إليه أحاول إغلاقه لكن فشلت.. الهواء شديد والباب ثقيل.. وضعت كرسي من كراسي الصالون خلفه ليغلقه.. ولعنت إهمالنا في إصلاح مزلاجه.. حتى سمعنا صوت الجرس يرن.. من العين السحرية رأينا عساكر.. خفنا ولكن فتحنا.. فما عساهم فاعلون وأصل وجودهم حفظ أمننا؟ .. فإذا بهم رجال يرتدون جلاليب وعلى رأسهم قبعة العسكر.. واقتحموا البيت بلا استئذان.. شاهرين أسلحة نارية بوجوهنا.. سمح لهم أبي بالدخول وبسرقة كل ما في البيت على ألا يأذوا أحدنا.. اندفعوا كالجراد.. وعددهم يزيد.. بل ومعهم نساء وأطفال.. في غاية السوقية..

يلملمون ما يجدون.. ويكسرون مالا يروقهم.. وحين دخلوا غرفتي كاد قلبي أن يتوقف.. عثروا على مدخراتي.. وسرقوا عطوري الفاخرة.. وملابسي.. وأقلامي.. حين وصلوا لمكتبتي ودنسوا كتبي كنت في حال مزرية.. إلا الكتب.. كنت أعلم أنهم لن يقيموها.. لن يفهموها.. فصار الحزن في قلبي

عميقاً.. حتى خرجوا من الشقة بحمولتهم وفي طريقهم مروا على المطبخ وأكلوا البطاطس التي كنت قد حمرتها لنا..

نهر لا يعرفني

قلت لموظفة الكاشير أن تلك ليست أول مرة أزور فيها ساحة بويرتو ماديرو.. بدت أنها لم تصدقني.. حاولت أن أحكي لها بأسبانيتي الركيكة أن المرة السابقة لم أحتاج لمرشد لأنني كنت معه.. ابتسامها أشعرتني أنها لم تفهم حرفاً.. ابتسمت بغيظ وأنا لا أعرف كيف أتصرف.. فأنا من صممت على أن أتمشى وحدي هنا.. إعتقدت أنني أعرف المكان لأنني قد زرته من قبل.. يبدو أنني أيامها لم أكن في كامل تركيزي..

في الأيام العادية أحفظ الطرق والأسماء جيداً.. فلما الآن لا أذكر شيئاً إلا حواري معه وأنا أقف على الجسر أتأمل بوينس أيرس الجميلة.. يجذبني نهر ريو دي لا بلاتا وأرى سعادته لأن بلاده قد أعجبتني إلى حد الجنون..

لم أرد أن أخبره أن السبب الرئيسي لانجذابي له في البداية كان لأنه منها.. فلم أكن أرغب في إثارة ذعره بأنني أحب الأماكن وأرتبط بها أكثر من ارتباطي بالأشخاص.. وأن ولعي بالأرجنتين قديم ومتغلغل قي دمي.. وأنني قد زرتها من قبل كثيراً في أحلامي..

كان يعجبني حين يقول أن الأرجنتين تشبه مصر.. وكان يحب أن يسمعني أردد أن الوطن العربي يشبه أمريكا اللاتينية.. لكن كان يكره حديثي عن أن أوجه التشابه تاريخية وحين أتكلم كثيراً حول الحروب والاستعمار.. فقد كان يحب الحياة ويرغب بشدة في نقل شعوره إليّ..

وحزنت حين رأيت في عينيه الإحباط حين ساويت في إعجابي بين كنيسة "دي نويسترا سينيورا ديل بيلار" وبين شلالات اجواسو.. ولم يتسم إلا حين قلت له أن الكرنك عندي أحلى من شعب البحر الأحمر المرجانية..

كان يقول عني مجنونة وماضاوية وأنني حتما كنت أميرة فرعونية في وقت ما.. وكنت لا أجد وصفاً له.. والآن ها أنا ذا تائهة في بلاده الساحرة أحاول أن أنعش ذاكرة النهر لعله يتذكر حوارنا فيذكرني بدوره بالطريق.. ورغم ذلك غير خائفة.. أقف في بويرتو ماديرو أتأمل وجوه الناس أكثر مما أتأمل معالم المكان.. وضبطت نفسي أبحث عن وجهه بينهم..

فابتسمت حين أدركت أنني حبي للأرجنتين لم يعد صافياً وقد أصبح مرتبطاً بضحكاته العالية..

أكتفي بابتسامة

أنا وياسمين نسير ليلاً في صلاح سالم.. هواء رطب بارد يدغدغ حواسي..

والشارع شبه خالٍ لكنه غير مخيف ولا قاسٍ.. جميل الهيئة ومنمق..وكأنه قد انتهى لتوه من حمام بارد منعش.. فانعشني وأفرحني.. وأكاد أشم رائحة أحد عطوري المفضلين.. حتى دون أن يكون موجوداً..

ياسمين ترتدي معطفاً أنيقاً فوق العادة.. أسود اللون فوق الركبة بشبر.. وتحته بنطلون جينز ضيق جعلها تبدو غاية في الجمال.. ليست تلك أول مرة أراها بهذا المعطف.. قلت لها ذلك فابتسمت بلا ردّ..

وكنا نسير ونتحدث كما نتحدث دائماً عن الأحوال.. نتناقش في تفاصيل تغيرات المجتمع.. ونتفق في وجة نظرنا.. وأسخر من الجهلاء مدعي العلم..

فتكتفي هي بابتسامة عريضة أحياناً.. أو ضحكة قصيرة مرحة.. لاحظت أن هناك شاباً أسود يسير خلفناً.. كان طويلاً فارعاً.. فلم ألحظ في البداية أن هناك شاباً آخر يسير معه.. أسود أيضاً وسمح الوجه..

كانوا يبتسمون لنا.. فابتسمنا.. شعرت بأنهما يودان ان يدخلا في حوارنا لكن يمنعهما الخجل.. ودوماً تحضرني رغبة في إبداء المزيد من الود لمن يظن أنني سأضطهده.. شعور بلا وعي مني ..

وأقصى ما أفعله هو ألا أكف عن الإبتسام..

غيبوبة

كانت عجوز طيبة..

تبدو هادئة الملامح إلا أنه ببعض التدقيق يلاحظ المرأ معاناة كبيرة محفورة في ملامحها.. منذ تم وضعها على أجهزة التنفس الصناعي ولم يعد أحد يسأل عنها من أقربائها.. لكن هناك من يسأل كل يوم عنها وهو يتمنى موتها.. وهم الراغبون في أجزاء من جسدها كالكلى والكبد لزرعها في أجسام تحتاج إليها.. أو حتى لسرقتها لبيعها بأسعار خرافية..

تبدو في غيبوبتها صامتة والكل لا يدري لها سبباً محدداً.. ولا يعرف أحد ماذا يمكن أن يكون يدور في داخلها سوى أن عقلها يرفض للاستجابة..

إلا أن يدها اليمنى شعرت بالغيظ الشديد.. وبدأت تتململ في سكونها الذي طال.. فقالت لها اليد اليسرى ضاحكة أنها لن تقدر مهما حاولت على التحرك.. فأجابتها اليد اليمنى أن الأمر ليس من شأنها وأنها تخطط منذ زمن للنهوض.. فازداد ضحك اليسرى قائلة سنرى.. وعلا صوت اليمنى وهي تشتمها بالأب والأم..

فلم تسكت اليد اليسرى وراحت تزيد الصاع صاعين وتذكرها بكل خطأ ارتكبته في الماضي لتعايرها به.. وحين علا صوتهما وتداخلت الاتهامات والشتائم استيقظت القدم اليمنى وقالت بصوت ناعس أن يخرس الاثنين فهي

تريد النوم.. والنوم مفيد والكسل جميل طالما الأمس مثل اليوم فغدا مثلهم وانتهى الأمر..

فتمتمت القدم اليسرى بأن القدم اليمنى على حق رغم عدم اقتناعها بذلك.. هنا تدخل العقل وأصدر أوامر لا رجعة فيها للجميع أن يصمتوا وإلا.. فصمت الجميع..

نامت القدم اليمنى بسعادة وهي تشعر بالأمن.. ونامت القدم اليسرى بنصف عين مفتوحة.. وتظاهرت اليد اليسرى بالنوم رغم انشغالها في التفكير كيف ستنتقم من اليد اليمنى.. وظلت اليد اليمنى تحاول في الخفاء أن تتحرك وتعصي أوامر المخ العليا.. كان المخ لا ينام.. يراقبهم دوماً ليتأكد من عدم حدوث أي تمرد من أي نوع.. وكان يحبس القلب بعيداً عنهم حتى ينسوا وجوده من الأصل..

وكان يعاقب من تسول له نفسه الخروج عن الأوامر بشكل يجعله لا يفكر في ذلك ثانية.. بل وفكر العقل أن يقتل القلب تماما ليهنأ من التفكير في خطره لكن في آخر لحظة فطن إلى أنه لو قتله لن يجد من يتحكم فيه.. فهو في الجسم كالملح في الأرض.. الجندي المجهول وأهم جندي في نفس الوقت.. وهو الوحيد المحتفظ بشبابه ورونقه.. وحتى لو ظل الجسد نائماً هكذا بلا حراك وكل الأجساد الأخرى تتحرك بحرية وتعمل وتنتج فهذا أفضل بالنسبة للمخ حتى يستمر في السيطرة والتحكم..

في تلك المرة كان القلب خلف محبسه حزيناً.. يفكر في حاله الذي ساء.. وفي تاريخه الجميل من الصحة والعطاء.. كان يعمل ببطء شديد الآن.. مجرد ما يكفي لجعل الجسد لا يموت.. لكن بلا أي حركة أو تقدم..

فكر القلب أنه لا بد من الثورة على العقل الذي يمسك تلابيب كل عضو في الجسد.. لابد من التكالب عليه.. لكن كيف لقلب مسكين واهن أن يفعل ذلك بمفرده.. حاول أن يتكلم مع اليد اليمنى.. وجدها في وادٍ وحدها وترفض أي فكر غير فكرها في التحرر ببطء وخلف الستار.. تحاور مع اليد اليسرى وجدها تتفلسف وتقول كلاما لا تقدر على فعله..

التفت إلى القدم اليمنى وجدها لا ترغب إلا في النوم وسعيدة بما يفعله المخ فهو الأدرى في نظرها والأكثر خبرة.. قال لها القلب أن باقي الأجساد تسير وتعيش حياة رغدة.. لم تصدق وظلت في سباتها العميق.. كان أمله الوحيد في القدم اليسرى إلا أنها تخوفت وقالت أنها ستنتظر لترى ما الذي ستفعله اليد اليسرى لتفعل مثلها..

ظل هذا الحال لفترة زمنية طويلة.. حاول فيها المخ تضليل القلب وإلهاءه.. إلا أنه وفجأة انتفض القلب.. وقرر أن يضع نفسه في مواجهة مباشرة مع المخ.. قرر أن يرفض الظلم دون تفكير في النتائج.. حتى لو أدى ذلك لأن يضحى بحياته.. وكانت المواجهة شديدة.. وكاد المخ أن يقتل القلب من كثرة ما جرحه .. إلا أن اليد اليمنى واليسرى تناستا خلافاتاهما ودافعتا عن القلب بشجاعة.. ولحقت بهما القدم اليسرى.. بينما ظلت القدم اليمنى تتابع ما

يحدث من بعيد.. كان العراك عنيفاً.. امتزجت فيه دماء القلب مع دماء اليدين والقدم الواحدة.. وحين بدا أن الفريق سينتصر..
حاول المخ أن يستعين بالقدم اليمنى وأقنعها بأنه أفضل من يحكم.. اقتنعت ولكن ظلت على جبنها تخشى المواجهة.. حتى دخل القلب إلى المخ وضخ الدم الجديد فيه.. وراحت اليد اليمنى بالتعاون مع اليسرى ينظمان المخ تنظيماً يتيح للجميع العدل والرخاء.. وكانت القدم اليسرى تحافظ عليهم وتحميهم من فلول المخ المتبقية العفنة..
نجح الأمر بعد وقت طويل..
وأفاق جسد المرأة الطيبة من غيبوبته التي قال عنها الأطباء من كل أنحاء العالم أنها دائمة .. وأقسم كل من رآها من معارفها أنها أصبحت أكثر شباباً وجمالاً.. رغم أنها قد خسرت قدمها اليمنى التي أصبحت مشلولة للأسف..
لكن جاري علاجها والأمل كبير..

حالته كانت حقاً مخيفة..

فهذه أول مرة يصاب فيها بحالة الهياج تلك.. وكان صوته عالياً.. ورغم ذلك يمزق قلبي.. رجوته أن يخفض صوته حتى لا ينظر الناس إلينا.. بدا أنه لا يسمعني.. وأمسك كتفي وهو يصرخ ويعيد نفس الحديث.. أحزنني أنني لا أقدر أن أفعل له شيئاً أكثر من كلمات المواساة البالية.. حاولت جعل كلماتي حماسية وأنا أقول أن الأمر برمته لا يهم.. وأنه عليه أن ينسى الموضوع كله لأن حياته بها أشياء أخرى أحلى.. جلس على الكرسي بصعوبة.. وانصب حديثه حول كونه يرغب حقا في الموت.. وأن كل ما يحبه هو هراء.. كان بداخلي أسئلة سخيفة عن كونه قد جرب عمليات إنقاص الوزن كتدبيس المعدة وشفط الدهون أم لا.. لكن لم أطرح مثل هذا السؤال الجارح لأنه قطعاً قد حاول أن يتشبه بجسد الإنسان الممشوق ولم يفلح.. ودون أن أسمع تلك التفاصيل كنت أتخيل المعاناة.. فبرمجت ملامح وجهي على أن تبتعد عن أي لمحة تعاطف قد يلمحها فتزيده هماً.. وقلت له أن

يلتفت لنجاحه في عمله.. وألا يفكر في العودة لتلك الدولة التي ترفض منحه تأشيرتها ثانية.. بدا حزينا ولم يرد.. وكان من قبل قد قال لي أنه يجد نفسه هناك.. يحب الجو والناس.. وله أصدقاء منذ الطفولة يحبونه بلا حساب.. آلمني ذلك.. فانا لم أعرفه إلا قريباً.. أو هكذا تقول لي ذاكرتي.. وحين تركته يجلس وحيدا وبالي مشغول به، جلست مع أصدقائي .. فإذا بي أحكي لهم عنه لأول مرة.. وأشرت إلى حيث يجلس حتى يرونه بأعينهم ولا يتعبني لساني وأنا أصفه بالبدانة المفرطة.. فإذا بالجميع يؤكد لي أنه لا أحد يجلس هناك من الأصل..

كالحلم

خمس أعوام منذ آخر لقاء..

بعدها باعدت بيننا مشاغل الحياة رويداً رويداً.. والآن أراها مصادفة في أحد المولات مع صديقة عمل جديدة.. كنا صديقتين مقربتين لأقصى الدرجات.. حوارنا كله ضحك.. حتى شجاراتنا كلها ضحك.. قد نغني في الهاتف أغنية إبريق الشاي لنتبارى في درجة حفظها..

ساعات طويلة ولا نمل من حديثنا حول أهالينا ودروس الثانوية العامة التي لا تريد أن ترحمنا من العذاب وعن آخر حلقة من برامج الراديو التي نستمع إليها قبل النوم.. ولو فرغنا مكالماتنا على أشرطة سنجد نصفها خوف من الاختبارات.. خوف من الفشل.. بعض التشجيع لبعضنا البعض.. وبعض التنافس والفخر لمن أنهت مذاكرة باب في التاريخ أو علم النفس قبل الأخرى أو تخطيط وجداول جديدة للمذاكرة.. وكانت هيئتها حين رأيتها كما هي .. لم تتبدل كثيراً .. فقط خسرت بعض وزنها فازدادت عينيها اتساعاً وتغير وجهها من الدائري إلى البيضاوي.. ضاحكة كعادتها ومرحبة.. لكن بدا عليها بعض إرهاق أو حزن.. لا أدري ما الذي جعلني أتفرس فيها وأدقق لأعثر على هذا الاختلاف الذي لاحظته روحي ولم تقدر أن تمسه بيدين باردتين تصافحها وهي تترقب ..

جلسنا في مقهى أنيق سعيدتين بتلك الفرصة التي منحها لنا الزمن لنتذكر أنفسنا.. نتذكر أياماً مرت كالحلم وكنا نعتقد فيها أننا مركز للكون..

ورقة اختبار بالية

في البداية لم أنتبه لورقة الاختبار الموضوعة أمامي ورحت ألهو في براءة حقيقية وأكتشف المكان الجميل.. وما أن وقعت عيني على الورقة حتى أصبت ببعض الرعب..

فالوقت غير محدد وأنا لا أعلم فيما سيتم سؤالي بالضبط.. قلت لنفسي من خبرتي في اختبارت المدرسة أن الوقت غالباً لن يتعدَ الثلاث ساعات..

جلست وقررت أن أجيب بكل ما أعرف من معلومات.. ووضعت ساعة يدي أمامي حتى لا يمر الوقت سريعاً دون أن أشعر.. جاوبت السؤال الأول وكان في نظري تافهاً.. لكن لاحظت أن من زملائي في لجنة الاختبارات من يشكو من صعوبته.. حاولت أن أخبر زميلي المتعثر بالإجابة لكن المراقب منعني بابتسامة .. طال الوقت وشعرت بالملل من كثرة الكتابة.. قمت قليلاً وتنزهت في المكان..

لمحت غيري كثيرين يلهون ويستمتعون بالهواء والجمال في خارج اللجنة.. ومنهم من يركب السيارات الفارهة ويعيش حياة مرفهة..ويتركون أوراق الاختبار.. فعلت مثلهم .. سعدت للحظات.. ولحظات أخرى ظلت ورقة الإختبار تظهر لي في خيالي.. وكنت أقنع نفسي بأن تهدأ لأنني قبل نهاية

الوقت سأذهب وأحل باقي الأسئلة التي ظننت أنها قطعاً ستكون بسهولة السؤال الأول..

بعد فترة قصيرة للغاية شعرت ببعض الدوار فخفت أن يغشى عليَ ولا أقدر على العودة.. فرحت أجري بسرعة.. وباب اللجنة يبدو بعيداً.. كدت أفقد الأمل.. حتى لاح الباب في الأفق به.. جلست وقرأت السؤال الثاني وصدمت من مدى صعوبته.. حاولت أن أشحذ ذهني وأن أقاوم الدوار.. كتبت بعض الكلمات.. لا أعرف إن كانت هي المطلوبة أم لا.. وحين حاولت أن أنتقل للسؤال التالي جاء المراقب وأخذ مني ورقة الاختبار معلناً نهاية الوقت..

لم أرضَ أن أسلمها له.. اعتبرته ظلماً أن يأخذ ورقتي بالذات وبعض زملائي ينالون وقتاً أكثر من وقتي..لكن لم أستطع مقاومته كثيراً من شدة الدوار.. حتى سقطت على الأرض.. وفي المشفى حين استيقظت فهمت كل شئ.. ورحت أنتظر ظهور نتيجتي راجيةً أن يكون ما أجبته يكفي لنجاحي..

فازداد حماسي وازدادت سرعتي.. وحين وصلت وجدت ورقتي كما تركتها.. كانت بالية ومهترئة لكن محتفظة بإجابتي للسؤال الأول.. وتغير بعض زملائي.. وكان هناك أوراق أخرى بلا إجابات.. لم اكن أتخيل أن الوقت بالخارج سيمر سريعاً

هكذا دون أن أشعر!!

السمّ يكذب أحياناً

وجدتها تقف بجواري.. متربعة اليدين.. وتهتز في غيظ مكتوم.. لم أعرها انتباها وتظاهرت بالانغماس أكثر وأكثر في شاشة الكمبيوتر.. حتى صدقت نفسي.. ورحت أهتم بأمور وهمية.. أعلق على مقال ما.. أنشر صورة ليست جميلة لكن بها ذكرى وأكتب تحتها جمل كئيبة توضح أن الزمن السعيد قد فات ومات.. أنتظر أن يرد عليَ أحد اليائسين.. قد نتبادل النقاش العقيم..أو النكات السخيفة القديمة..

ثم أنهي الحوار وأدخل في صفحة لعبتي الإلكترونية اليومية.. فيها أزرع وأحصد ما زرعته.. أبني بيوتاً وقصوراً.. فيزيد مالي.. ويزيد رصيدي.. وأتقدم على زملائي في اللعبة.. وأغير شكلي.. لون عيني وطول شعري.. وأختار فساتين ملونة ومبهجة.. وأصور لحظات النصر بكميرا وهمية تصور الشاشة وتنشر ما صورته على صفحتي ليدخل غيري ويلعب نفس اللعبة.. وظللت هكذا لفترة لا أدري ما هي.. ونسيت وجودها تماماً.. فقد كنت دوماً بارعة في التمثيل والتقمص..

حتى صدقت كل أكاذيبي وعشت فيها بكل جوارحي.. وكم أبكتني أكذوبة.. قصة مختلقة من الألف إلى الياء..كئيبة وحزينة مليئة بالشجن.. انسكبت من أجلها دموعي وعشت بسببها أحداثاً من الألم.. وكم أضحكتني وأسعدتني قصصاً لم تحدث.. ورحت أفخر بها وأتذكرها كذكرى سعيدة حقاً.. فلم تواجهني صعوبة الآن في أن أتظاهر بعدم وجودها بجواري من الأصل.. ولم يعذبني ضميري في تركي إياها تتسمر هكذا وتكاد تميز من الغيظ.. حتى لو كان هذا الغيظ موجه إليَ في الأساس.. إلى أن عبرت لي عن تفكيرها في الانتحار.. !

حاولت بنصف عقل أن أثنيها وكذبت عليها بأنني سوف ألبي حاجاتها منذ الآن.. وصدقتني كما كانت تفعل دائماً وعلى الدوام.. وبالفعل في البداية حاولت أن أكون صادقة وبكل حماس.. إلى أن خبا حماسي تدريجياً كالعادة وعدت لأكاذيبي القديمة التي تخرجني من المآزق وتجعل الآخرين يحترمونني على الأقل في وجهي.. وضاع الوقت.. وأفلت مني كثير من شريط العمر..

تظاهرت بأنني لا أبالي أحياناً.. وأعلنت سخطي على نفسي أحيان اخرى.. وكنت أحاول أن أختبأ منها حتى لا تنتحر وتتركني هكذا طوال ما بقى لي من سنوات هنا.. حتى جائت يوماً وأعلنت لي دون مقدمات أنها قد تناولت السم وانتهي الأمر.. وتعجبت من أنني لم أحزن كثيراً كما توقعت.. ربما ظل بداخلي إيمان راسخ أن السم الذي تناولته غير سام..

سم كاذب ككل شئ في حياتي.. عبرت لها عن شعوري فضحكت بعصبية ولم تجيب..ثم اختفت ورحلت للأبد.. أو هكذا ظننت لفترة.. وسائت حالتي واستعصى عليَ تصديق الأكاذيب.. وظن الجميع أنها نهايتي.. حتى أنا صدقت ذلك في أوقات كثيرة.. لكن ظل شئ ما بداخلي حائر يجول يطرق كل أبواب عزيمتي ليبحث عنها.. كنت أدرك أن الراحلون لا يعودون الآن..

رغم كون عالمي ملئ بالموتى الأحياء.. لكن قبل أن أصل لنهاية كل شئ تشبثت بأمل العثور عليها .. فبحثت عنها بجهد لم أبذله منذ ابتعدت هي عني وبدأت بالضجر من مصاحبتي.. حتى وجدتها تجلس بعيدة تتأمل الطبيعة والحياة وتختبأ عن أعين الناظرين.. كانت جميلة كعهدي بها لكن خالية من مظاهر الحياة..

قررت أن أعيدها وذكرتها بالماضي وصالحتها.. واتفقنا على حل يرضي الطرفين.. ستزورني كل يوم للحظات.. حتى تتأكد من رغبتي في الحياة .. ومن احتياج العالم إلى وجودي ..

حولت أن أرضيها ولا يخيفني إلى الرجوع إلى عهدي القديم..

فاي

دوماً هناك الغربة واليأس ينتشران مع الهواء المكتوم.. سيقولون لكِ ما بكِ..
وهم أصلا لا يكترثون.. ستشعرين بالاختناق.. وحزن غريب لأنكِ لم تعودي
سعيدة رغم أنك تقفين في أكثر بقاع الأرض قرباً إلى قلبك.. تنظرين إلى
صفحة النيل بتملل.. تنتظرين انتهاء الرحلة النيلية في الأقصر بنفاذ صبر..
برغبة في الرحيل أو العودة.. وهم حولكِ يضحكون ضحكات سمجة..
يعتقدون أنهم ظرفاء..
تضحكين أحياناً مجاملة.. وعينك تنظر إلى النيل بخوف من الغرق.. رغم
كونكِ تستطيعين السباحة.. لكن دوماً ترين نفسك تصارعين الغرق في
النيل.. وساعتها يكون ماؤه طيني.. يسحبك للأسفل بضرواة.. ويكونون
جميعا يغرقون..

يختفي أحدهم من أمام عينيك للأبد.. تحزنين على فراقه بشدة أحياناً..
وأحيان أخرى تتصنعين ذلك لأن قلبك أصبح خاوياً.. فكما لم يعد يفرح
ولا يقدر أن يحب..
لم يعد يعرف معنى الحزن أو الكره.. وقديماً علموكِ في حصة الرياضيات كلمة
فاي.. أي لا شئ.. تماماً مثل قلبك الخالي..

لكن ما أصابكِ بالاندهاش الكئيب هو خلو قلبك حتى من السعادة في معالم الأقصر.. تلك الأماكن التي كنتِ تظنين أنك قد تركت روحكِ فيها.. تقفين وحدك في وادي الملوك..

هناك بالأسفل بالضبط عند مقبرة تحتمس الرابع.. تنتظرين روحك لكي تعود إليكِ.. ويطول الانتظار.. وبلا شعور أصلاً.. تعلمين أن ذلك كله كابوساً وتدركين أنه الأسوء.. وأنكِ بمجرد أن يرن المنبه ستشكرين ربكِ أنكِ مازلتي تتطلعين للجلوس أمام البحيرة المقدسة في ظل مسلة حتشبسوت.. ولكن هل أنتِ واثقة من كونه مجرد كابوس؟.. انتظري إذن النجدة من الخارج....

نسيت شيئاً

دوماً متعجلة..

يدق قلبي عنيفاً خائفاً.. يخشى أن أنسى شيئاً.. فأضع ملابس بعناية غير فائقة عكس المعتاد في الحقيبة الكبيرة.. وفوقها الكتب التي قرأت نصفها في رحلتي.. وأدوات مكياجي في الحقيبة الصغيرة التي أرتديها على الظهر.. وعطوري حولها منشفة حتى لا تتكسر.. يدخل أحدهم ويستعجلني.. غالباً يكون أحد موظفي خدمة الغرف.. يبدو سمجاً.. يقول شيئاً حول كون الغرفة لابد أن تكون خالية في منتصف الظهر.. أي بعد دقائق..

لا أجيبه..

أظل في سباقي المحموم مع الزمن وأنا ألملم أشيائي.. يدخل أحد معارفي ليستعجلني أيضاً ويزيد توتري.. غالباً تكون أختي.. أحياناً أراها أمي.. لا أميز بالضبط.. يزداد هلعي حين تخبرني بأن الطائرة تنتظرني.. ولن يطول انتظارها من أجلي.. أغلق الحقيبة وأنا أدرك أنني حتماً قد نسيت شيئاً.. في الأغلب ألحق موعد الطائرة.. ويظل قلبي معلقاً بما نسيته في دولاب الفندق متمنية ألا يكون ذا قيمة كبيرة بالنسبة لي..

فليس كل ما له في نفسي معنى قيمة حقيقية في الواقع..كوسادتي القديمة.. أو دفتر كتاباتي.. أو كل ما أحرص أن أصطحبه معي في السفر..

أحياناً أتوسل إلى الطيار أن ينتظرني حتى أعود للفندق لعلي ألقي نظرة أخيرة على دولابي..

نادراً ما يوافق..

وساعتها حين أذهب أجد الغرفة قد سكنها غيري..

بلا جاذبية

أجدني على كوبري عملاق أجلس بجوار نهى وهي تقود سيارتها التي تشوهت هيئتها من كثرة حوادثها.. لا أدري إن كانت سارة معنا أم لا.. فهي ثالثتنا التي لا تفارقنا.. الكوبري بلا سور.. السرعة جنونية.. لكن لم نصطدم ولم نقع من الحافة.. كنا نشعر بالنشوى ونغني مع المذياع بصوت عالي..

حتى فاجأنا ارتفاع الطريق بشدة ومن ثم انخاضه وكأننا سننزل في حفرة بالسيارة في آخرها نهاية الطريق.. طارت بنا السيارة وطرت أنا منها تماما.. حادث آخر لا أدري إن كنت سأنجو منه أم لا.. طال وقت الطيران.. حتى صرت أحلق فوق السحاب.. شعور عجيب جديد لم أجربه ولا في الأحلام من قبل.. الهيام بلا جاذبية وبلا إرادة مني.. والسحاب تحتي وأنا أدرك أنني سأسقط لكن لا أعلم متى .. أخبر نفسي بأن هذا هو شعور من يقفظون بالمظلات إذن..

لكنني بلا مظلة وبلا صمام أمان.. وعلى حين غرة اكتشفتني الجاذبية وطبقت علي قانونها بلا رحمة.. فرحت أقترب من الأرض بسرعة هائلة.. حتى سقطت في حمام سباحة.. وهناك وجدت نهى تسبح في هدوء.. والكل

مشغول بلحظات متعته الخاصة مندمجاً مع الشمس والمياة ولا يفكر في الهموم.. ففعلت كما يفعلون..

مكالمات هاتفية تتكرر

بدأت حديثي بأنني لم أعد أحتمل البشر..
ضحك بتوتر وأنا أعلم أنه يفكر في أمر آخر.. حاول أن يخرجني من حالتي المعنوية المتردية.. ليس بهدف التخفيف عني، بل لندخل في حوار مختلف.. ليمسك هو طرف الحديث ويقص عليٍ يومه البشع.. أيضاً البشر.. لا يفهمون.. مستفزون.. ولن تنتهي الأوصاف السيئة أبداً..
بإرادتي الحرة نفذت له رغبته.. تركته يتحدث وظبطت نفسي على ردود مفتعلة للتظاهر بالاهتمام والمتابعة.. آه.. ياه.. لماذا؟.. ماذا! ..
من لهفته على السرد وعلى أكل الكلام لم يلحظ مللي.. وظل يكرر القصة.. بلا أي محاولة لملاحظة درجة رغبتي في تعذيب نفسي وسماعه للمرة الألف وهو يقص مشاجرته مع المديرة في العمل.. وكيف أنها لم تكن هكذا في البداية..
لا إنما هو الذي لا يفهم طبائع البشر.. طبعاً من فرط طيبته وسذاجته.. وهذا لأننا لم نحتك بتلك الأنماط البشعة..
فجأة.. نزعت سلك الهاتف.. سيظن أنه عطل ما.. في الحقيقة لم أكن أهتم.. قمت وفتحت نافذة غرفتي.. لحسن الحظ كان الهواء بارداً.. أغلقت النور.. وعدت للنافذة أتأمل الشارع النائم..

أطربني صوت الصمت.. وأنعشني تغلغل الليل في خصلات شعري.. أنا من جعلت نفسي أذناً للآخرين.. أدرك ذلك جيداً..

وأدرك أن أوان العودة قد فات.. لذا قررت في المرة المقبلة حين أشعر أنني لا أحتمل البشر.. ألا أشكو لأنسان.. ولا حتى أنا..

سأقاطع نفسي أيضاً.. لن أخبرها بمقدار مقتي لها.. ولكسلها وتفاهتها .. سعدت بقراري.. وأسكرني الهواء المنعش..

أخذت نفساً عميقا.. ووجدت نفسي أعيد سلك الهاتف.. وأطلب رقمه وأقول" سامحني الخط قد قطع، ماذا كنت تقول؟"

بين درجات السلالم

الدرجات أكثر مما يمكن تخيله..
أكاد لا أستطيع رؤية نهايتها.. وأنا كالمعتاد أقف على قمة السلم أنتظر أن أهبط درجة درجة حتى أصل لنهايته التي لا أراها الآن..
لي مع السلم أكثر من حكاية.. أحياناً أقع من الدرجات الأولى وأنزلق حتى النهاية بلا ألم.. ومرات أقفز من الدرج الأول حتى الأخير دون أن تلامس قدمي الدرجات الوسطى.. لكن حين أجد أنني قد وصلت للدرج الأخير يظهر لي سلم آخر .. وحين أقفز بالطريقة نفسها يظهر لي سلم آخر..
وهكذا حتى النهاية..
وبهذا أصبحت السلالم بالنسبة لي هي المكان كله.. لم تعد وسيلة للذهاب من مكان لآخر..وغالباً أكون مسرعة لأن هناك خطرًما.. أو هناك من يطاردني ولا أراه..
دوماً أود الفرار..
وبداخلي شعور بالهلع من كوني لن أنتهي من السلالم أبداً.. ما لاحظته مؤخراً أنني في الغالب أنزل السلالم فقط.. لا أصعد إلا نادراً جداً.. رغم أنني كنت أحب الصعود السريع أيضاً.. وتأكل قدمي السلالم وأنا أصعد عدواً..

لكن حقاً لا أدري ما الحكمة في كوني أصبحت أنزلها فقط.. وفي اختفاء شعوري بالإنجاز حين كنت أصعد في الماضي..

ليحل محله ذلك الشعور الذي يصيب الفريسة.. فالهرب يكون كل ما يسيطر على تفكيري.. الرغبة في النجاة.. من شئ لا أعرف عنه أي تفاصيل سوى أنه بشع..

كراكيب

عند شارع مدرستي الساكن معظم اليوم عدا ساعتي توافد الطلاب في أول النهار وخروجهم في آخره..

كانت تلك أحد اللحظات التي يخلو فيها الشارع من المارة تقريباً.. بل يخلو من أي شكل من أشكال الحياة.. المحلات لا يمكن تبين إن كانت مغلقة أم يجلس بداخلها البائع وحيداً ينتظر.. كنت أتأمل كل ذلك بتوجس.. فقد توقعت أن يتكرر ما حدث معي في المرة الماضية وأن أراه يراقبني من بعيد في أي لحظة.. وحين عاودني شعور الذعر توقعت الأسوأ أيضاً.. فقررت أن أسرع الخطا وأن أدخل المحل الذي كنت أشتري منه في الماضي القريب مستحضرات التجميل والحلى الزهيدة الثمن البارقة الألوان.. كان اسمه "كراكيب" لأنه يبيع كل شئ..تمنيت أن تتذكرني البائعة السمراء ذات العلكة والغرة الصفراء التي تتدلى من الطرحة.. كانت تعرفني جيداً وتنتظر قدومي أول كل شهر حين كنت أستلم مصروفي .. وكانت تخفي لي ألوان ملمع الشفاة الجديدة لعله يعجبني.. وأتذكر يوم أحضرت لي ماسكرا صفراء كبيرة للغاية.. يومها ضحكت وأنا أقول لها أنها تكفي لرموش أنثى حمار بلدي.. وإتضح أنني لم ألم بعد بكل وسائل التجميل حين عرفت أنها للشعر وليست للرموش من أجل تلوين خصلة أو اثنين بالأصفر وسط شعري الأسود.. لم

تعجبني الفكرة البتة رغم كون معظم الفتايات في فصلي قد ابتعنها وتلونت خصلات شعرهن بألوان الطيف..

وحين دخلت لم تكن نفس البائعة.. كانت بائعة أخرى سمجة الملامح.. كلما تجولت في المحل وجدتها خلفي ومانفكت تسألني إن كان لي طلب معين.. وجدت الأزواق لا تعجبني.. سألتها إن كانت تعلم أين ذهبت البائعة القديمة فلم تجبني.. أصابني الغيظ وملأني فخرجت.. وبمجرد غلقي للباب وجدته يقف على أول الشارع وكنت قد نسيت خوفي منه.. فهرولت في الإتجاه المعاكس وتسارعت أنفاسي.. فوراً لاحظ وجودي فراح يخطو تجاهي بخطواته الثقيلة المزعجة..

كان رجل خمسيني لا أدري لما يتتبعني.. ملابثه رثة لكن يبدو أنها كانت أنيقة يوماً ما وملامحه قوية توحي بالغضب.. قديماً كنت أرتدي ملابس المدرسة وأتخفى وسط زميلاتي من نظراته المريبة لي.. وحين أخبرتهم بذلك سخروا مني وحولوا الموضوع لأضحوكة أخرى.. والآن أنا وحدي كالمرة السابقة وقطعاً لن أنجو منه.. فهو قادم لا محالة.. ومهما جريت أنا مسرعة ومشي هو الهويني لا تزيد المسافة بيننا.. المسافة أيضاً لا تقصر.. إلا حين ألتفت لأتأكد من استمراره في ملاحقتي..

ساعتها أود أن أصرخ لعلي أوقظ النائمون في الشارع الميت.. تتوقف حنجرتي عن العمل.. وتخرج صرخاتي شهقات مبحوحة مكتومة الصوت.. فيزداد تلاحق أنفاسي وتعبي.. ويصيبني الإحباط.. فحتى وسيلتي الوحيدة في طلب

النجدة لا أجيدها.. في المرة السابقة ركبت سيارة أجرة ونجحت في الهرب.. الآن لا أجد أي بصيص من أمل مع خلو الشارع.. كدت أن أستسلم من فرط الإرهاق والرعب.. فالتفت إليه وتوقفت وأنا أستند على ركبتي.. ظل يخطو بملامح ثابتة نحوي.. فوجدت نفسي أصرخ أخيراً بلا انقطاع.. ونسيت خوفي من فرحتي لعودة صرخاتي ملك لي.. فرحت أصرخ بصوت أعلى.. حتى خرج المدرسين من المدرسة مسرعين.. والناس من العمارات.. وحتى البائعة السخيفة.. وتجمع الكل حولي يحاول تهدأتي.. أشرت على الرجل لأشرح لهم.. فكان قد تبخر..

ولم أره ثانية في ذلك الشارع رغم مروري به عشرات المرات بعد ذلك..

ولا صورة

أكثر من مرة بعد سفره بحثت طويلاً وأنا أعلم نتيجة بحثي من البداية لكن ظل عندي بعض الأمل أن أجد بين ألبوم صوري وجهه ولو كان حتى ينظر من بعيد..

فأتذكر كلماتي له أيامها أن يتصور معنا.. تارة ضاحكة.. وتارة متصنعة للغضب.. كان يتحجج دوماً بحجج مختلفة.. مرة شعره ليس كما ينبغي.. وأخرى لا تعجبه الكاميرا الرديئة الملحقة بالمحمول..

كنت أواصل إلحاحي للحظات ثم أمل وأغير الموضوع.. إلى أن ظلت صوري كلها تخلو من وجهه فتحول داخلي إلى طيف بملامح تتغير تبعاً للأيام..

حين أكبر كنت أراه يكبر معي.. حين أحزن أتخيله عابساً من أجلي..

ويوم حققت حلمي واقتربت أن أصير كما تمنيت، لمحت ابتسامته حولي..

ألمحت له بذلك في إحدى مكالماتنا الهاتفية المتباعدة.. ضحك برقة وذكر شيئاً عن كونه غير نادم على عدم ترك صورة له عندي.. ازداد غيظي ..

قررت أن أمحو صورته من عقلي.. فشلت.. ورأيته يضحك متهكماً عليَ..

فابتسمت.. واستسلمت..

الغامض أحياناً

أضغط الأزرار طبقاً لذاكرتي التي طالما اعتبرتها حديدية لا تنسى جميل الذكرى ولا قبيحها.. هو هاتف حائطي بالعملات المعدنية..

حين أصل للرقم الخامس أو السادس أكتشف أنني قد طلبت رقماً خاطئاً فأضع السماعة لأعيد الكرة وقد بدأت أتوتر.. لا يكون ما يوترني هو أنني لا أعلم أين أنا تحديداً وكيف سأعود للبيت، بل يزداد قلقي كلما خيم الظلام وبدأ الليل.. فليس مسموحاً لي أن أظل بالخارج ليلاً.. الليل بالنسبة لي هو الغموض والخوف من المجهول.. هم صوروه لي وحشاً.. فأصبر نفسي بأنني سأطلب الرقم الصحيح وأستفسر عن الطريق.. أغلط مرة ثانية.. ومرة ثالثة.. فرابعة تتبعها الخامسة.. وكلما زاد توتري أخطأت الرقم أكثر لأن يداي أصبحت ترتجفان..

حين أود أن أضع إصبعي على رقم ثلاثة مثلاً يخطأه من كثرة ارتعاشه ويطلب اثنين.. في النهاية أمل الأخطاء وألعن ضعفي فأنصرف غاضبة بعد أن ألاحظ مراقبة الناس لي.. أخوض مغامرات ليلية وقد انسحب الخوف من نفسي تدريجياً وأصبح لا يظهر إلا كومضات سريعة من الترقب عن مصيري حين أعود إليهم..

أجد الليل بديعاً فتخشى نفسي أن أدمنه.. فأواسيها بأنها مرة واحدة لظروف معينة وأنني سأجد حجة ما.. قابلت أناس وعشت حياة بلا قيود..

كان معهم هواتف محمولة ولم أطلب منهم استعارتها.. كنت قد بدأت أحب حياتي وأنسى كل شئ عن الماضي.. حتى بزغت شمس الفجر وجدت نفسي وحدي وقد انصرف الكل لبيوتهم.. أجدني أراقب الشروق.. حتى تتوسط الشمس السماء.. وأسير وحدي هائمة.. لا أخشى السمرة التي تكسبها لي الشمس.. شعرت بأنني أخيرا قد صالحتها.. دوماً كنت أكره حرارتها واللون الذي تكسبه لبشرتي.. بغتة وجدت الهاتف الحائطي، طلبت الرقم بسلاسة، أجابني أحدهم وهو يعتصر قلقاً.. وبعد أن قلت أنني كنت تائهة بنصف ساعة وجدتهم أمامي.. كان اللقاء حاراً لأول مرة بلا لعنات وتوبيخ..
وكنت أقص عليهم بعض الأحداث وأخفي أخرى بينما ذهني يسألني عن موعد المغامرة القادمة..

كثيرون على الأرض

اعتدت تلك الموهبة العجيبة في قراءة أفكار الآخرين..

أخفيت الأمر وتجاهلته حتى أصابني الشرود.. في البداية صدمني ما بداخلهم.. ومع الأيام أصبحت أشعر أنه شئ عادي، حتى جاء هو إلى عالمنا.. صغير لا يجيد إلا البكاء ليعبر عن آلامه، التي تنحصر في رغبته في الطعام أو في شعوره بوجع في المعدة.. كان برئ كجرو سعيد بالحياة.. أبله كقط يضحك في وجه الذئاب.. وكانت فرصتي لمراقبة عقله والتمتع بهذا الكم الهائل من الخلو من التعقيد..

حين دخلت بخفة وجدت حدائق غناء.. وكان هناك رجل يجلس على الترع يتمتع بالشمس تارة.. وينام تارة.. قد يقوم ويسير ويغني.. وقد يأكل من الثمار الحلوة الناضجة على الشجر.. فجأة غابت الشمس بلا إنذار وانهمر المطر.. وتبعه البرق والرعد والخوف.. فوجدت الرجل بتوارى وظهر لي وجه الطفل يبكي بحرقة.. وحين أسرعت أمه إليه وهدأ.. عادت العصافير تغرد معه في حدائقه وأنهاره الخاصة..

أصابني بعض الإحباط الممتزج بالغيرة..

ورحت أنتظر أن تمر الأيام بلا صبر.. كنت حقاً أود أن أعرف متي وكيف تحولنا جميعا.. تعيساً كنت لأنني أيقنت أن ذلك حتماً مصيره.. وحين تابعت

مراحل نموه لاحظت أن الرجل السعيد بداخله يقل مع الأيام وجوده .. وتقل مساحة الحديقة تدريجياً ليحل محلها وجه الطفل وهو يفكر في ما يخص دنياه.. يخشى الظلام فتنهمر العواصف.. يبكي لسقوطه على الأرض وهو يجري.. فتختفي العصافير .. وحين دخل المدرسة في الرابعة تضاعفت لحظات القلق والخوف.. وفي العاشرة تقريباً اختفت جنته تماماً وحلت وجوه الناس بحلاوتها وقبحتها في كل عقله ومعها شروره ومخاوفه وسذاجته وطيبته.. باختصار أصبح عقله يخصه بالكامل وليس به إلا يومه وذكرياته..

نسيته تماماً بعد أن أصبح يشبه الآخرين.. فلم أحزن حين سافر مع أهله لبلاد بعيدة.. وما زادني بعداً عن التفكير وتحليل الأمر هو اختفاء موهبتي التعيسة تلك نهائياً من داخلي.. عشت حياتي أخيراً مثلهم ونسيت كل ما تعلمته وما رأيته داخل الناس..

حين كانوا يحتفلون معي بعيد مولدي السبعين وعزموا كل أفراد العائلة رأيت وجهاً مألوفاً..

ظننتي قد أصبت بداء النسيان لأنني فشلت في التعرف عليه.. وحين عرفت أنه هو وأنه الرجل ذاته الذي كان يعيش في الحدائق سعيداً نقياً كدت أموت من الضحك.. فقد كان مغروراً منتفخاً يظن أنه فاتناً وأنه فريد ليس على الأرض غيره..

لعمارتنا القديمة مدخلان..

مدخل بسلالم رخامية، وذلك للغرباء أو للآباء.. والآخر هو منحدر الجراج المخصص لنزول السيارات.. الذي يكون مطلع في حالة الخروج من العمارة.. أحياناً هو ساحة سباق.. وأوقات أخرى هو منحدر حلو للدراجات يجعلنا نشعر أننا في الملاهي.. فتتعالى ضحكاتنا وصراخنا ولا يقطعه إلا صوت أحد الآباء من الشبابيك يأمرنا أن نخفض أصواتنا أو نخرس أفضل لأن الناس لا تستطيع أن تنام في قيلولتها ياكذا.. وياكذا.. وكذا تلك هي سباب ليس ببذئ ولا يهم سوى الأطفال..

كبار الشباب بالنسبة لنا ممن في المرحلة الإعدادية والثانوية أي بين الثانية عشرة تقريباً والثامنة عشرة يحولون ساحة الجراج الكبرى إلى ملعب كرة قدم لا هزل فيه، أشتروا مرمى بلا شباك.. وخططوا الأرضية بخط المنتصف وخط الركنية.. ونظموا دوري باشتراك لأهل الشارع كله..

وفي النهاية توزع الإشتراكات على الفريق الفائز بالدوري الذي تكون مدته شهرين هم فصول الأجازة الصيفية.. وكنا نحن أبناء الطبقة المطحونة في الجراج من طلاب المرحلة الابتدائية غير مسموح لنا أن نخطو ولو خطوة في الملعب أثناء سير المباراة..

ولو تجرأ أحدنا واعتقد أنه طريف ودخل بالدراجة في وسط الملعب كان عقابه يكون عسيراً، على الفور يُحمل على الأعناق ويتم فتح سيارة احد الآباء فيجلس في داخلها وحده مرغماً لمدة ربع ساعة كاملة في حبس انفرادي تعيس..

في عيد الأضحى يتلون الجراج بالدماء، ولحسن الحظ يكون الدوري قد انتهى لأن العيد الكبير في طفولتي كان يأتي في أجازة نصف العام الشتوية..
كان جميع السكان يضعون خرافهم في الجراج بجوار الشجرة العجوز.. وننزل نحن طوال النهار نطعمهم الفول والبرسيم ونركبهم ونطلق عليهم الأسماء خصيصاً حتى نحزن للحظات قصار وقت ذبحهم ثم يصعد كل واحد فينا إلى شقته ليتناول مع أهله ذلك الإفطار الدسم السنوي..
عدت مرة وتمشيت في شارعنا القديم وتسللت للجراج من ناحية المنحدر ورعبتني فكرة أنه يبدو أصغر بشكل هائل.. شعرت بالحنين للحجم الصغير الذي يرى كل شئ كبير.. مشيت ببطء حتى وصلت للشجرة العجوز فإذا بها بربع حجمها السابق.. وليس لأنني كبرت.. بل لأن فروعها التي كانت تصل للطابق الرابع قد تم قطعها بكل قسوة التخلص مما لا يثمر..
حزنت عليها وعلينا.. وبينما أعد السنوات وأتذكر كل ما فات ابتسمت حين لمحت لافتة مكتوبة بخط اليد الطفولي مكتوب عليها "استاد الجراج الدولي" ..

تلك الكلمات

تعلم جيداً أن كل شئ سينتهي بعد تلك الكلمات..

لا يمكن أن تعود المياة لمجاريها ولا أن يعود الشعور لسابق عهده، سينقطع الود.. وستختفي الضحكة ولن ينسى نظرة الكراهية والغل التي ستخرج حتماً كالرصاص مع الكلمات الجارحة.. لكنها كانت قد كتمتها طويلاً..

وأسعدها تخيلها وهي تقولها بصوت عالي.. جعلها ذلك التخيل تبتسم وحيدة.. وتتمنى ذلك اليوم الذي ستعبر فيه عن مكنون فكرها.. وعن مشاعرها بدقة دون خوف أو تزييف..

ستخبره أنها لن تستمع مرة أخرى لحديثه الممل الذي تكرر أسبوعياً تقريباً لمدة عشر أعوام كاملة.. كل أسبوع يبدأ بذكر الموقف نفسه.. وتوبيخها.. وسرد التفاصيل.. والخوض فيها.. والعودة من نقطة البداية..

ترد أحياناً بفتور.. وأحيان أخرى بعصبية.. وأخرى لا ترد مطلقاً فيتمادى في الحديث.. قد يتذكر ماضيه التعيس.. أو لحظات فرحته القليلة في الحياة..

تشعر بالشفقة عليه مرات.. ومرات تمقطه وتنظر نحو كوب القهوة الساخن الذي يتلذذ من رشفاته مع تلذذه بتعذيبها بكلماته وتتمنى لو خطفته منه وألقته في وجهه بسرعة خاطفة.. يسعدها تخيل صرخاته واحتراق بشرته وعينيه.. وتتخيل رد فعلها فتبتسم..

الحوار معد مسبقاً.. كل كلمة فيه تحفظها.. خططت له مراراً.. ستفصح له عن مشاعرها وهي تعلم أن تلك خطوة بلا رجعة.. لا تحتمل النفس سماع القسوة ممن اعتادت منه الخضوع.. وتصورت فيه الحب.. وتيقنت من طيبة نفسه.. فاستسلمت لمصاحبته طويلاً واستكانت لكلماته الخانعة واعتقدت أنها تدرك كل ما في داخله.. حسناً.. لن يستمر هذا.. ستعلن عن بركان غلها وكرهها لكل ما ارتبط به.. ستتمرد بلا رجعة.. سيصعق حتماً.. قد ينهار.. وقد يصرخ بلا انقطاع.. ستتمزق نفسه من الداخل وسيصدم..
غروره لن يتحمل صفعة بتلك القوة بعد كل سنين الصمت تلك.. لن يغفر لها فهو لا يغفر.. ولن يتفهمها من لم يفهمها طيلة حياته..
كانت تستيقظ فزعة من حلم راودها بأنها صارحته.. في أحلام المنام يكون دائماً صامتاً يسمعها.. تماماً عكس الحقيقة.. وتقول هي ما بدا لها دون أن يقاطعها..

يبدو في أحلامها مهزوماً.. متقهقراً وخائفاً.. وتبدو هي واثقة تصف مشاعرها بدقة تحسد نفسها عليها حين تستيقظ حزينة لأنها ليست تلك التي تحلم بها.. وتقرر أن اليوم سيكون هو اليوم المشهود ونهاية كل شئ.. كل يوم تقرر.. وتأخذها الدوامة وتسمع الحكي نفسه منه..
فترد بفتور تارة.. وعصبية تارة.. وأحيان أخرى لا ترد مطلقاً..

إنهم يتغيرون

وقفنا نصفق له..

كان بارعاً كعهدي به، كلماته تقطر ذهباً.. ونظراته مليئة بالأمل والثورة.. تكلم كثيراً عن حقنا وعن تصدره لمطالبنا.. انتخبناه ليمثلنا.. ردد أن ذلك فخرٌ له وأنه لن يخذلنا.. كنا جميعين فرحين.. أخيراً وصل صوتنا للمقاعد العليا..

ذهب.. جلس معهم.. عاد.. تمتم بكلمات ما.. وعود ما..

ومرت أيام ليست بكثيرة.. تغيرت هيئته.. تبدلت نظرته.. وإذا به يصبح واحدا منهم.. وإذا بنا نبحث عن غيره..

على وشك الإنفجار

كاد الصداع أن يفتك بي..

شعرت أنها النهاية..لا يمكن لرأسي أن تحتمل أكثر.. ستنفجر في أي لحظة.. قمت من الفراش أترنح.. خطر في بالي أن أطلق لشعري حريته.. ربما كان سجنه طويلاً في صورة واحدة هو سبب عذابي.. ربما يكون هذا الصداع ثورة منه علي قيده الذي فرضته عليه ليلا ونهارا.. مشطته.. ولاحظت أنه أصبح طويلا فعلاً.. وأعجبني سواده.. ذكرني بالليلة الماضية.. لو لم تكن ليلة سوداء، فما لونها إذن؟ ..

تأبى الألوان المبهجة أن تلتصق بتلك الليلة الحزينة..خرجت من غرفتي .. لم أرتدي نظارتي.. كل ما أفكر فيه هو أن أجد في صيدلية المنزل أي شئ للصداع.. حتى لو كان سم مريح للأبد.. وجدتهم يجلسون ويتضاحكون على الأمر..يسخرون من ليلة أمس.. لاحظوا استيقاذي..

أحدهم قال"أول مرة منذ شهور أرى شعرها حرا هكذا" أجابه الآخر" أتركها .. يبدو عليها أنها لم تنم منذ الأمس" يرد عليه " لا تذكرني أرجوك.. كلنا لا يحتمل الفكرة" تركتهم يتحدثون.. حقا كنت لا أبالي إلا برأسي.. تناولت

أقراص ما.. بعدها كوب ماء ما..وعدت إلى فراشي.. بطرف عيني لمحت المحمول ينير وينطفئ..

كان صامتاً.. هناك من يطلبني.. هناك من يريد أن يعرف رأيي.. أو ربما يواسيني.. أو يشاركني الانهيار..أمسكت بالهاتف فكانت واحدة من أقرب صديقاتي.. بلا تردد ولا أعلم لماذا رددت عليها.. ربما كنت أبحث عن صحبة ما تهون عليَ ما حدث.. بدا صوتي مرتجفا وحائرا.. كانت أكثر تماسكا..

وللأسف راحت تردد أسباباً مضحكة.. تحملتها ورحت أنفي كلامها.. أنهت الحوار بأن الحياة كلها قرف.. وبلا مقدمات دخلت في قصة صديقتنا الثالثة التي تقدم لها العريس فلان.. وأنه تخيلي كان حقيراً وكذا كذا..

وجدت دموعي تنهمر في صمت.. قلت لها" آسفة جدا.. لا أقدر أن أركز معكِ.. أنا حزينة بشكل هائل ولا أفكر في شئ غير ما حدث أمس في شوارع مصر" بسرعة قالت أنها لاحظت ذلك وأنه لاعليك وأنه وداعاً سأكلمكِ لاحقاً.. لم تمر أكثر من نصف ساعة وطلبتها..كان تأثير المسكن قد بدأ ينتشر في خلايا رأسي.. قلت لها "ماذا كنت تحكين؟ آسفة أغلقت الهاتف بسخافة..

من هو ذلك العريس؟" دخلت في تفاصيل القصة بحماس.. وظل بالي مشغولاً.. وقلبي من الحزن معصوراً.. أفكر في المستقبل الذي رويدا يظلم.. أحاول أن أرى بصيص أمل.. وأعبث في خصلات شعري المنثورة على ظهري بحرية .. وأشعر بها سعيدة ..

تغمرها نشوى الانطلاق بلا قيود.. وأتمنى في نفسي أن أعدها بألا أعيدها للحبس.. لكن لا أملك ذلك..

أن تسقط بناية هائلة في شارع عباس العقاد الذي يعد الأهم في مدينة نصر فتلك أشبه بالدعابة السخيفة..

أن تكون تلك البناية هي التي يقبع في أسفلها محل "الوحدة" فذلك أشبه بكابوس غير ممكن تحقيقه.. كابوس غير مرعب حتى من فرط ما هو خيالي.. لكنه كان عنواناً رئيسياً لنشرة أخبار التاسعة في التلفزيون المصري.. سقطت بناية في عباس العقاد قبل عيد الأضحى بيومين.. اتصلنا بمعارفنا الذين يقنطون في بنايات مجاورة لها قالوا أن الأرض اهتزت بشدة.. وأن الغبار علا حتى أعمى أعين الناظرين الفضوليين من شرفاتهم.. وظن الجميع أنه زلزال آخر.. حتى تبين أن بناية كانت تبدو من أقوى البنايات قد تحولت إلى كتلة هائلة لا ترسل إلى جيرانها سوى غبار..

مرة أخرى الوحدة.. كل نزهة تبدأ بالذهاب إلى الوحدة..

كانت شقيقتي تتذمر وأنا أفرح.. سنذهب لشراء ملابس لكن مهلا في بداية المشوار سنذهب لشراء مكنسة من الوحدة.. قبل أن نذهب إلى ملاهي السندباد سنمر على الوحدة لشراء مقص.. أمي لقد تمزق نعلي المنزلي الذي نسميه "شبشب"، الرد أن غدا قبل أن نذهب إلى جدتي سنشتري غيره من الوحدة.. فأفرح أنا لأنني بهذا سأتمكن من الصعود إلى الطابق الثاني من الوحدة وأشاهد الألعاب والعرائس هائلة الحجم.. وسألقي نظرة على

اللوحات العملاقة التي تتصدر الواجهة.. كانت لوحات رغم كبر حجمها زهيدة الثمن..

مات من مات تحت الأنقاض.. وتسارعت جهود الإنقاذ فعاش من عاش.. وتم سجن صاحب العمارة بدعوى الإهمال ومخالفة القانون.. فقد بنى أدواراً إضافية دون ترخيص، تماماً كما يفعل الجميع.. بل ومات بعض أهله.. فقد كان يسكن في البناية نفسها.. موت وخراب ديار بكل ما يحمله المثل من معنى..

الوحدة يبيع كل شيء.. لكن هناك محل آخر اسمه حقا "كل شيء".. هذا المحل في شارع مصطفى النحاس.. الشارع الذي ينافس عباس العقاد في مدينة نصر من حيث الأهمية.. ذهبت مرات قليلة إلى "كل شيء".. وكان مبهراً رغم صغر مساحته.. كانوا يعنون بكل شيء تلك كل شيء عن الحياكة وشغل التطريز ولوح السيرما وأي شيء مرتبط بالخيوط.. كانفا وكوريشيه وكور الصوف.. كل الألوان والأنواع.. كل الإبر.. وشرائط الستان التي توضع في الشعر.. لم أضعها في شعري مطلقاً.. كان دوماً قصيراً ولم أضفره إلا بعد أن كبرت وأصبحت الشرائط أمراً مستحيلاً..

أخرجوا خروفين من تحت الأنقاض وكلب بلدي.. كانوا مذعورين.. كانت الخراف قد سُجنت في البدروم من أجل ذبحها في العيد.. وكان البواب يربي الكلب بعيداً عن أعين سكان العمارة.. كان الكلب وسيماً رغم بكاءه حين أخرجوه.. مات البواب وعاش الكلب..

اشتريت مرة من كل شيء لوحة من المفترض أن أشغلها بالخيوط لتكتمل.. وحين ذهبت إلى الوحدة وجدت مثيلة لها مشغولة بالفعل ومعروض للبيع.. أصبت بالإحباط.. كل شيء في الوحدة جاهز وزهيد الثمن.. الوحدة أصلاً تبيع كل شيء.. أدوات مطبخ وبلاستيكيات ولعب أطفال وهدايا ونباتات زينة وأدوات مكتبية وملابس منزلية.. حتى أنهم كانوا يبيعون أثاث منزلي ومكتبي.. أي أن محل الوحدة كان أجدى أن يُسمى "كل شيء" ! لم تلفت نظري تلك المسميات أبداً أيامها..

بعد صلاة العيد طلبت من أبي أن يمر على عباس العقاد..

لم أكن حزينة.. لم أكن مصدومة.. كنت فقط لا أصدق فلم تنتابني أي مشاعر.. تماماً كما ودعت من أعرف أنني لن أراه ثانية.. كنت أحسب لذلك اليوم ألف حساب.. تصورت نفسي منهارة.. تصورت لحظات الوداع المؤلمة.. ولم يحدث شيء من هذا.. فقد كنت لا أصدق.. فكان كأي يوم آخر..

مررنا فلم نجد عمارة الوحدة.. لم نجد زحام ربات البيوت ولا نداءات البائعين.. وجدنا فراغاً تاماً.. كانوا قد ساووا الأرض تماماً فلم يبقى حتى الحطام..

لطالما تساءلت عن اسم المحل الغريب "الوحدة"، ماذا كان يعني؟ .. الوحدة في الغربة.. الوحدة في الشيخوخة.. أم الوحدة في داخلنا.. سألت أمي فلم

تعرف إجابة.. وبعد الحادث قرأت في الصحف أن اسم المحل هو "الوحدة العربية"..

هل كانوا يكذبون؟!.. أم أن كلمة العربية كانت قد مُحيت من لافتة المحل فسميناه نحن فقط.. الوحدة..!!

حاول أن يجيب على تساؤل ألح عليه..
ما الذي جاء به إلى تلك المحطة في ذلك التوقيت بالتحديد.. ثم توصل إلى أنه لا يعرف حتى متى جاء وكيف وصل إلى هذا المكان الخانق .. كل ما أمكنه أن يُجزم به أنه فقط يشعر بالتشويش وبصداع رهيب في رأسه .. فأدار رأسه سريعاً في كل الاتجاهات فشعر بعدم الاتزان وقرر أن يجلس على الرصيف لعله يتذكر..
أدار رأسه ببطء هذه المرة .. رأى أناساً آخرين مجتمعين في المحطة ..
حافلات تصطف في زحام كريه .. هناك شيوخ بملابس عفا عليها زمن غابر لم يترك أثراً سوى الغبار الذي لا لون له و لا رائحة سوى رائحة الكآبة والفقر المدقع .. وأطفال يرتسم على محياهم بؤس عجيب على وجوه بلا براءة وأجساد لم تغسل منذ المولد فتشربت بقذارة بدت رهيبة على جسد الأطفال..
نساء تجلس واضعة يدها على خدها وقد انتابتها حالة ذهول أزلية .. وهناك واحدة أواثنتين تندب أو تلطم..وأخرى تضحك بمجون.. وشباب مرتصون وكلٌ شاردٌ شرود يبدو للناظر كشرود مجاذيب بلا عقل فقدوه من زمن منسي من ذاكرة البشر ..

كل ذلك لم يلفت نظره للوهلة الأولى .. فقد شغل باله المنهك أمراً واحداً..
هو ما الذي أتى به إلى هنا .. أين كان قبل أن يأتي لهذا المكان القميء
البغيض على أي نفس خلقها الله و كرمها .. لفتت نظرة رائحة عطنة تملأ
المكان لم يتذكر متى عاش فيها حتى صارت لا تلفت نظره..

تراءت له مشاهد ليس لها صلة بتلك المحطة التعسة .. ذكر نفسه مثلاً طفلاً
له أم لا تبتسم .. تطعمه أشياء بين الحين والآخر بلا طعمٍ .. لا تسمن ولا
تغني من جوع.. وكان هناك المزيد من الأطفال.. هل كانوا أخوته مثلاً.. لا
يدري.. كان هناك الكثير من الشجار و الصياح.. وكما أتاحت له ذاكرته
تذكر أن المكان كان ضيقاً كأنما يصعد في السماء .. كان هناك دائما رائحة
عطنة كريهة تنبعث من كل شيءٍ حتى الطعام ..

و تذكر من صباه مشهداً له وهو في مدرسةٍ ما تكتظ بالتلاميذ التعساء
والمعلمين الأكثر تعاسةً منهم .. وكان هو جالس ترعبه فكرة أن يختاره
المعلم بالذات من دون التلاميذ ليجيب على سؤالٍ سيعجز حتماً عن حله..
فينال بعده عدداً لا بأس به من الركلات واالصفعات .. ولا يذكر حتى أن
كان المعلم قد اختاره أم أنه قد أفلت من ذلك الرعب الوقتي الرهيب ..
وأيضا لم تختف الرائحة العطنة تلك عن ذلك المشهد ..

أما شبابه فلا يذكر منه شيئاً .. ربما كان هناك الكثير من المسائل .. نعم
المسائل الحسابية والمعادلات الرياضية .. وتعجب من وجود نفس الرائحة
حتى للمسائل الحسابية ..

قفزت إلى ذهنه فكرة أن يبحث في جيبه عن أي شيء قد يساعده على تذكر هويته.. وبالفعل أخرج بطاقة شخصية مهترئةً ممزقةً لا تبدو فيها صورة أو اسم.. ولكن بدت فيها كلمة رياضيات واضحة نوعاً .. لا يدري ماذا تعني .. ربما كان مدرس رياضيات .. أستاذ رياضيات في الجامعة .. أو أي شيء .. المهم أن عقله متخم بالقوانين و القواعد والمعادلات .. وأن كلها بلا معنى أو دلاله ..كانت تشغل حياته حتماً.. لكنه فشل في تذكر أي منها وكأنها كانت سراب كباقي حياته ..

كانت حركته بطيئة ولا يعلم لماذا .. وكان الكل حوله كذلك أيضاً .. حتى الحافلات كانت تتحرك بين اللحظة و الأخرى ببطءٍ شديد .. كل شئ فى هذا العالم يبدو مشلولاً.. تماماً مثل ذاكرته..

حاول فتح فمه لينطق شيئاً .. وبدأ الكلام يخرج بطيئاً غير مفهوماً .. لكنه كان بحاجة ماسة للاستفسار للوصول لحقيقة ذاته وعن كيفية كونه تائه تماماً عن الوجود وعن الواقع .. مغيب كلياً لا يدري أي شيء عن أي شيء ..

وأخيراً حين تكلم سأل شيخاً بجواره على الرصيف عن هذا المكان وعن هؤلاء الناس.. وفي البداية لم يرد الشيخ كأنه لم يسمع شيئاً .. ثم أجاب الشيخ بتثاقل من يحمل أزمنةً من الصمت أنه لا أحد يفهم.. ولن يفهم أحد ..

فكر في طلب مرآة يرى وجهه فيها .. ولكن سرعان ما عدل عن الفكرة.. فقد كان كارهاً لنفسه ناقماً عليها لا يريد الصدام معها خائفاً منها مرعوباً مما قد يجده فيها.. فضلاً عن أنه قطعاً لا أحد يحمل مرآة فى هذا المكان ..

ومر وقت طويل إلى أن أفاق ثانية وسأل الشيخ عن الميعاد الذي سيقومون فيه من هذا المكان .. أجابه الشيخ بصوت يخرج من بئر قاعه بعيد.. أنهم لن يقوموا حتى الموت .. وأنه بعد موتهم سيأتي المزيد من التائهين .. وأنه قد ضاع الطريق للأبد.. ثم عاد الشيخ لسكوته يتأمل الموجودات للحظات.. ويشرد لحظات أخرى..

أما هو فلم يحرك ساكناً لهذا الكلام .. كما توقع بالضبط .. بل على العكس فقد كان بداخله إيمان حتمي أزلي أن تلك المحطة هي الأخيرة .. وأنها تشبه كثيراً حياته السابقة إذ بها نفس الرائحة العطنة لذكرياته .. وكان لديه يقين من كونه قد تاه كثيراً قبله في حياة كلها فقدان للنفس والروح والبدن.. بل سره إلى حد ما أنه وجد الملايين غيره .. من التائهين بلا رجعة ..

قيدي راسخ

رأيت السماء تنذر بغيومها.. بمومها.. وكنت وحدي أسير..
قلت لا بأس لعلي أصالح الأمطار.. لعلي أجد سعادة في السير تحتها كما يقول الناس.. في البداية قطرات.. وبلا مقدمات انهمرت السيول.. حاولت أن أنتشي.. حاولت أن أُزيف لنفسي شعوراً وهمياً بالفرح .. فشلت.. كعادتي فشلت.. فقد كانت روحي الهائمة تدرك جيداً أن تلك سحابة عابرة من الحرية والانطلاق ومن وحدتي ولن تطول.. وإن طالت مدتها وخدعتني فستنقشع.. وودت لو قلت للمارة من حولي أنسوا أمر الحرية.. فهي خدعة وقتية .. وأنتم حين تسركم مياة الأمطار وتضحكون كالأطفال لثوانٍ.. تعودوا بعدها لتتكبلون بمعايير قيودكم وتفكرون في ملابسكم المبتلة وأحذيتكم الجلدية التي سيفسدها الماء فتهرولون ابتعاداً.. وأنا مثلكم ..
فقط أرى قيدي قبلكم.. راسخ في نفسي منذ الأزل..



الأغلال نفسها

تقابلنا وفرحنا باللقاء..

ورحنا نتذكر الأيام الخوالي ونُذكر بعضنا بالمواقف المضحكة..

أتذكرين يوم خبأتي حقيبة المعلمة؟.. ويوم غنينا لمنة وضحكنا عليها؟..

أتذكرين أنتِ يوم رحلة الإسماعيلية حين سقطت من الأرجوحة؟.. لا يمكن أن تنسي طبعا دريم بارك يوم ابتلت ملابسك بالكامل في الشلالات.. إتفقنا على تكرار الأيام واستئذنا مدرستنا القديمة.. ارتدينا الملابس نفسها.. ذهبنا في الصباح الباكر.. وجلسنا جميعا في الفصل.. كان المرح يُخيم علينا..

دخلت أول معلمة الفصل ورحبت بنا وضحكت على فكاهاتنا ثم بدأت في الشرح.. تظاهرنا بالسماع لنحبك اللعبة.. وأخرجنا كشاكيلنا وكتبنا لنكتب .. وتداخل الماضي مع الحاضر فأرعبني..

هل من الممكن أن يعيدوا الاختبارات أيضاً؟ ياللمصيبة نحن في إبريل والاختبارات تكون في نهاية مايو أو أول يونيو.. لم أفعل جدول مذاكرة.. بل لا أذكر شيئاً أصلاً من المناهج.. ضحكت بصوت عالي متوتر.. فنهرتني المعلمة لأنها تريد أن تركز في الشرح.. استجبت لنهرها لي ولا أعلم لماذا.. نسيت أننا في لعبة ولا أعلم كيف.. وخضعت للموقف كله .. وجزء من ذاكرتي يخبرني أنني سأخرج من هنا أعدو.. لست طالبة وقد تخرجت من

المدرسة ومن ثم الجامعة من زمن.. وجزء آخر أصابه الرعب حتى الثمالة..
سأرسب حتماً.. نظرت إلى وجوه زميلاتي فإذا بهم منتبهات يكتبن..
ياللصاعقة لقد نسي الجميع أننا أحرار .. قالت لي إيمان بكل جدية أكتبي
الواجب حتى تحضريه غداً ولا تنقليه مني كالمعتاد.. اختنق الصوت في حلقي
ولم أنبس ببنت شفة.. وكتبت المطلوب لأحضره غداً.. كنت أود أن أخبرها
أننا كنا نلعب.. متي تحول الهزل إلى حقيقية.. لا أدري.. كذبت نفسي خوفاً
من الإحراج..وكذبت ذاكرتي التي اعتقدت أنني قد تحررت من الأصل..
وأقنعت نفسي أنني كنت هنا منذ البداية.. فقط كبرت في العمر لكن
بالأغلال نفسها..

مؤلفة الكتاب

سندس جمال الحسيني

مواليد القاهرة ١٩٨٧.

حاصلة على ليسانس الألسن من جامعة عين شمس قسم اللغة الألمانية.

حاصلة على دبلومة تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها من جامعة القاهرة.

حصلت على المركز الأول بمسابقة القصة القصيرة للشباب من دار الهلال ٢٠٠١.

حصلت على المركز الأول بمسابقة القصة القصيرة على مستوى كلية الألسن بجامعة عين شمس ٢٠٠٦.

حصلت على المركز الأول بمسابقة القصة القصيرة لطلاب جامعة عين شمس ٢٠٠٨.

حصلت على المركز الأول بمسابقة الأبحاث الطلابية على مستوى الجامعات المصرية ٢٠٠٨.

تعمل مترجمة لغة ألمانية وإنجليزية وباحثة وكاتبة سيناريو أفلام وثائقية ومواد دعائية وأفلام كرتونية.

للتواصل مع الكاتبة:

sondos@presentray.com
aschenputtel_ss@hotmail.com

المحتويات